

## المبحث الأول: الأمن:

إن قضية الأمن في الإسلام تُعدُّ أمراً جليلاً، ومسألة في غاية الأهمية، وإذا أردنا أن نُصلِّحها فلا بد أن نتكلم عن الأمن في مجالات ستة، وهي كالآتي:

### أولاً: الأمن السياسي:

يبني الأمن السياسي على أمور ينبغي مراعاتها، وهي: رعاية شؤون الأمة في الداخل والخارج، وإقامة المبادئ العليا كالعدل والمساواة في المجتمع، والحفاظ على كرامة الإنسان وحرية. والسبيل إلى تحقيقه يعتمد اعتماداً أصيلاً على ضمان تداول السلطة، وعلى المشاركة المجتمعية في تحمل المسؤولية وتحديد المصير. هذه السبل جاءت بها الشريعة الإسلامية، وهي متمثلة في: مبدأ الشورى وفرضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجوب النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم. وقد دلَّ على ذلك: كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وحياة الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين عبر القرون.

فمن الكتاب: قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩] وقوله سبحانه في معرض بيان خصال المؤمنين ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى: الآية ٣٨].

ومن السنة المطهرة:

قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»<sup>(١)</sup>.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُوهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»<sup>(٢)</sup>.

وبما أن الإسلام هو الدين الخاتم، ورسالة القرآن هو الكلمة الأخيرة من ربِّ الناس إلى خلقه، فلقد ضمن حفظها وصونها من التحريف أو التبديل أو الضياع؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩]، وحفظ الله سبحانه وتعالى لها له مقصدٌ جليل. إذ يعمل الناس بما جاء فيها من شريعة وأحكام حتى تصلح أحوالهم ومعيشتهم.

وكما أن لحفظها مقصداً آخر، وهو أن تكون مصدراً مستمراً يستمد منه الخلق هدايتهم ورشادهم فيما يعينُّ لهم من مستجدات؛ ففي القرآن منهج يهدى الخلق إلى المعرفة والعلم، ويهديهم لسبيل الرقى والاحترام في النظرة إلى كل ما يحيط بالإنسان من مخلوقات، سواء في ذلك الجماد والحيوان والنبات والإنسان، فالقرآن هو كتابٌ هداية، وهو أيضاً حجة الله على خلقه.

(١) متفق عليه، صحيح البخارى ٢١/١. وصحيح مسلم ١/٥٣.

(٢) سنن الترمذى (كتاب الفتن - باب ٩ ما جاء فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر)

ومن ثمَّ وجد المسلمون في دينهم سعةً في الفهم والتفكير في متطلبات شريعتهم وأوامر قرآنهم. فحصل لهم من ذلك رحمةً واسعةً في معاشهم. فمهما تطورت حياتهم أو تغيرت مظاهر الحياة فإنهم يجدون في القرآن متسعاً لجديد الفهم وجديد الهداية والرشاد التي تتناسب مع صالح الحياة.

ولقد أولى الإسلام مبدأ الشورى اهتماماً كبيراً؛ إذ من خلاله تتحقق الوسيلة التي تمكن المجتمع الإسلامي من تنظيم عملية الاجتهاد الجماعي لأجل الوصول إلى كلمة واحدة يفصلون بها فيما يعنُّ لهم من أمور تستحدث في حياتهم.

والشورى لغةً: من شاورته في الأمر، واستشرته: راجعته لأرى رأيه فيه. واستشَّاره: طلب منه المشورة. وأشار عليه بالرأى. وأشار يُشير إذا وجَّه الرأى وأشار إليه باليد: أوماً.

وتتعين الشورى في حالة ما إذا احتاجت الأمة إلى رأى جامع يُوحِّد كلمتها على حكم شرعي أو غيره. وأما في حالة الاجتهاد والبحث الفردي؛ فإنه يُتَّاح لكل من توفرت فيه شروط الاجتهاد والقوى أن يُبدى رأيه، مما يؤدي إلى إثراء الفقه الإسلامي بتعدد الآراء والاجتهادات، ولا حرج في ذلك، ولذلك فالمسلم المقلِّد له متسع في أن يأخذ بأى الآراء الفقهية التي تناسب حالته وظروفه؛ وقد نصَّ على ذلك علماء الأمة سلفاً وخلفاً؛ قال الإمام القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق: لقد نفع الله باختلاف أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في أعمالهم، لا يعمل العاملُ بعمل رجلٍ منهم إلا رأى أنه في سعة، ورأى أن خيراً

منه قد عمل عمله<sup>(١)</sup>. وقال الإمام سفيان الثوري: إذا رأيت الرجل يعملُ العمل الذي قد اختلف فيه، وأنت ترى غيره فلا تنهه<sup>(٢)</sup>. وقال الإمام أحمد بن حنبل: لا ينبغي للفقهاء أن يحمل الناس على مذهبه ويشتدّ عليهم<sup>(٣)</sup>. وقال ابن قدامة المقدسي: وجعل في سلف هذه الأمة أئمة من الأعلام مهد بهم قواعد الإسلام، وأوضح بهم مشكلات الأحكام، اتفأقهم حجة قاطعة، واختلافهم رحمة واسعة<sup>(٤)</sup>. وصنّف رجل كتابا في الاختلاف. فقال له الإمام أحمد: لا تسّمه الاختلاف. ولكن سمه كتاب السعة<sup>(٥)</sup>.

وقال القرافي: لا ينبغي للمفتي إذا كان في المسألة قولان أحدهما فيه تشدّد والآخر فيه تخفيف أن يفتي العامة بالتشديد والخواص من ولاة الأمور بالتخفيف. وذلك قريب من الفسوق والخيانة في الدين والتلاعب بالمسلمين، وذلك دليل فراغ القلب من تعظيم الله تعالى وإجلاله وتقواه وعمارته باللعب وحب الرياسة والتقرب إلى الخلق دون الخالق<sup>(٦)</sup>.

وبناء على ما سبق: فإن مسائل العبادات أو المعاملات الفردية تختلف عن أمور السياسة الشرعية والمسائل الجامعة والمحددة لمصير الأمة والمجتمع، لأن التعدد في الأولى يُعدُّ ثراءً وفسحة، أما حدوثه في

(١) جامع بيان العلم وفضله ٢ / ١٦٠.

(٢) حلية الأولياء ٦ / ٣٦٨.

(٣) الآداب الشرعية لابن مفلح ١ / ١٦٦، وغذاء الألباب للسفاري ١ / ٢٢٣.

(٤) المغني لابن قدامة ١ / ٢٩.

(٥) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣٠ / ٧٩.

(٦) تبصرة الحكام ١ / ٥٢.

الثانية فيُعَدُّ اضْطِرَابًا وفوضى، مما يهدد أمن المجتمع وسلامته.

ولقد تحدث القرآن الكريم عن الشورى فى ثلاثة مواضع:

أولها: فى سياق حديث القرآن الكريم عن أمور العائلة. وفيه شرع الله تعالى التشاور بين الأبوين فى مسألة إتمام رضاعة المولود مدة الحولين، وذلك للخروج بالقرار السليم الذى يتناسب مع حالهما ومصحة المولود؛ حيث قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَشَاوِرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٣].

وثانيها: فى السياق القرآنى الذى يوجه فيه ربنا سبحانه وتعالى حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم للعفو عن المؤمنين والاستغفار لهم، ومشاورتهم فى الأمر؛ حيث قال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩]، والمراد بالمشاورة هنا هى الشورى العامة التى تتعلق باتخاذ القرارات السياسية والاجتماعية على مستوى الدولة؛ لأن الأمر هنا يشمل جميع مهمات الأمة ومصالحها فى الحرب وغيره. وأما الموضوع الثالث جاء فى سياق الثناء على المؤمنين ببيان خصالهم، وهى - كما ذكرتها الآية الكريمة - : الاستجابة لله سبحانه وتعالى، وإقامة الصلاة، واعتمادهم الشورى مبدأً لاتخاذ القرارات فيما يخص الصالح العام، ثم الإنفاق من رزق الله فى أوجه الخير؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [سورة الشورى: الآية ٣٨]، والمتأمل فى الآية الكريمة يجد أن الله سبحانه قد ذكر تلك الفضائل فى نسق واحد، فقرن بين الاستجابة لله

والصلاة والزكاة وبين الشورى، وذلك ليلفت أنظار المتفقهين في كتابه الكريم إلى أن الشورى أصل عظيم، ينبغي أن تؤسس عليه الأمة الإسلامية بناءها؛ إذ هي كإقامة الصلاة والزكاة سواء بسواء في الوجوبية.

ومساواة الشورى للصلاة والزكاة في الحكم بأداء كل بالوجوب لم يأت سدى؛ لأن الشورى مما جبل الله تعالى عليه الإنسان في فطرته السليمة التي من شأنها أنها تحبُّ الصلح وتسعى إلى تحقيقه، وتطلب النجاح في المساعي، ولذلك قرَنَ الله تعالى خلق أصل البشر بالتشاور في شأنه؛ إذ قال لملائكته: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠]، والله عز وجل قد غنى عن إعانة المخلوقات في الرأي، ولكنه عرض على الملائكة مراده؛ ليكون التشاور سنة في البشر ضرورة أنه مقترن بتكوينه، فإن مقارنة الشيء للشيء في أصل التكوين يوجب إلفه وتعارفه، ولما كانت الشورى معنى من المعاني لا ذات لها في الوجود جعل الله إلفها للبشر بطريقة المقارنة في وقت التكوين.

ولم تزل الشورى في أطوار التاريخ منتشرة في البشر؛ حيث استشار فرعون قومه في شأن موسى عليه السلام فيما حكى الله عنه بقوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١١٠]. واستشارت ملكة سبأ قومها في أمر نبي الله سليمان عليه السلام، فيما حكى القرآن عنها تعريضاً دون ذكر لفظها، مادحاً سلوكها في اتخاذ القرارات بقوله: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِ فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [سورة النمل: الآية ٣٢].

ورود في سنة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يدل على عظم أمر الشورى وشرفها، ومن ذلك: ما روى عن ابن عباس رضي الله

عنه أنه قال: لَمَّا نَزَلَتْ (وشاورهم في الأمر) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ غَنِيَانِ عَنْهُمَا، وَلَكِنْ جَعَلَهَا اللَّهُ رَحْمَةً لِأُمَّتِي. فَمَنْ شَاوَرَ مِنْهُمْ لَمْ يُعْذَمْ رُشْدًا، وَمَنْ تَرَكَ الْمَشُورَةَ مِنْهُمْ لَمْ يُعْذَمْ عَنَاءً»<sup>(١)</sup>.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاؤكم وأمركم شورى بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاؤكم وأموركم إلى نساءكم، فبطن الأرض خير من ظهرها»<sup>(٢)</sup> وهو يدل بوضوح على أن بقاء الشورى بين المسلمين علامة على أن حياتهم خير لهم من الموت وإذا ذهبت كانت علامة على انتهاء الخير في دنياهم .

وقوله صلى الله عليه وسلم « من أراد أمراً فشاور فيه وقضى لله ، هدى لأرشد الأمور »<sup>(٣)</sup> وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما خاب من أستخار ولاندم من استشار ولا عال من اقتصد »<sup>(٤)</sup> كما أن ما ورد في سيرته - صلى الله عليه وسلم - العطرة يعد خير شاهد على تقديره - صلى الله عليه وسلم - للشورى ، وهو المؤيد بالوحي من ربه ، فلقد سمع لمشورة الحباب بن المنذر في غزوة بدر حينما أشار عليه بتصحيح موقع التمركز في المعركة بل وأثنى على حسن تفكيره واهتمامه لأمر المسلمين.

(١) شعب الإيمان للبيهقي (باب الحكم بين الناس) ٤١ / ١٠ .

(٢) سنن الترميزي ( أبواب الفتن ) ٥٢٩ / ٤

(٣) شعب الإيمان ( باب الحكم بين الناس ) ٣٩ / ١٠ .

(٤) المعجم الأوسط ( باب الميم من اسمه محمد ) ٦ / ٣٦٥

واستجاب صلى الله عليه وسلم لسعد بن معاذ حينما أشار عليه ببناء  
عريشٍ يشرف منه على إدارة المعركة في بدر .

وبعد انتهاء الحرب استشار صاحبيه أبا بكر وعمر فيما يعمل في  
الأسرى ، وحينما اختلفوا مال صلى الله عليه وسلم لرأى أبى بكرٍ فى  
العفو وقبولِ الفدية<sup>(١)</sup>.

وقد سار أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم على هديه فكان  
حالُ أبى بكرِ رضى الله عنه دائماً المشورة مع أصحابه ، وكذلك عمر بن  
الخطاب من بعده؛ فعن ابن عباس قال : قال عمرُ: الإمامةُ شورى<sup>(٢)</sup>.  
وقال أيضاً رضى الله عنه : «الرجالُ ثلاثةٌ : رجلٌ تردُّ عليه الأمور  
فيسدُّها برأيه، ورجلٌ يشاورُ فيما أُشكل عليه وينزلُ حيث يأمره أهلُ  
الرأى ورجلٌ حائرٌ بأمره لا ياتمرُ رشداً ولا يطيعُ مرشداً»<sup>(٣)</sup>.

ولقد أكثر عمر بن الخطاب من أمر الشورى وبالغ فيها، وما أحسن  
ما امتدح به شوقى عمر بن الخطاب حيث قال :

يا رافعاً رايةَ الشورى وحارسها

جزاك ربُّك خيراً عن محبِّيها

رأى الجماعة لا تشقى البلادُ به

رغم الخِلاف ورأى الفردُ يُشقيها

(١) راجع: السيرة لابن هشام ٢/٢٦٦ : ٢٧٢ .

(٢) مصنف عبد الرزاق ٥/٤٦٦ ، رقم (٩٧٦٠).

(٣) مصنف ابن أبى شيبة ٣/٣١٠ .

وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه: «نعم المؤازرة المشاورة وبئس الاستعداد الاستبداد»<sup>(١)</sup>.

وقال عمر بن عبد العزيز: «إن المشورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة لا يضل معهما رأى ولا يفقد معهما حزم»<sup>(٢)</sup>.

ومن عظم كبره اشتد عجبُه، ومن أعجب برأيه لم يشاور كفيئاً، ولم يؤامر نصيحاً، ومن تفرّد بالنظر لم يكمل له الصواب، ومن تبجح بالانفراد، وفخر بالاستبداد كان من الصواب بعيداً، ومن الخذلان قريباً، والخطأ مع الجماعة خير من الصواب مع الفرقة، وإن كانت الجماعة تخطئ والفرقة تصيب، ومن تكبر على عدوه حقره، وإذا حقره تهاون بأمره، ومن تهاون بخصمه، ووثق بفضل قوته، قل احتراسه، ومن قل احتراسه كثر عثاره، وما رأيت عظيم الكبر صاحب حرب إلا كان منكوباً، ولا والله حتى يكون عدوه عنده، وخصمه فيما يغلب عليه أسمع من فرس، وأبصر من عقاب، وأهدى من قطة، وأحذر من عقق، وأشد إقداماً من الأسد، وأوثب من الفهد، وأحقد من جمل، وأروغ من ثعلب، وأغدّر من ذئب، وأسخى من لافظة، وأشح من ظبي، وأجمع من ذرة. وأحرس من كلب، وأصبر من ضب، فإن النفس تسمع من العناية على قدر الحجة، وتتحفظ على قدر الخوف، وتطلب على قدر الطمع، وتطمع على قدر السبب»<sup>(٣)</sup>.

(١) غرر الحكم ودرر الكلم ص ٣٤٦ (الفصل السابع آفات الحكومة)، رقم (٧٩٨٥).

(٢) أدب الدنيا والدين للماوردي ص ٣٠٩.

(٣) جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ١ / ١٦٦.

كما أن للإمام الماوردي كلاما بديعا في المشورة؛ ونصه كالآتي: «اعلم أن من الحزم لكل ذي لب ألا يبزم أمرا ولا يَمْضِي عَزْمًا إِلَّا بِمَشُورَةِ ذِي الرَّأْيِ النَّاصِحِ، ومطالعه ذى العقل الراجح. فإن الله تعالى أمر بالمشورة نبيه صلى الله عليه وسلم مع ما تكفل به من إرشاده، ووعد به من تأييده. فقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٩]. قال قتادة: أمره بمشاورتهم تألغا لهم وتطييبا لأنفسهم. وقال الضحاك: أمره بمشاورتهم لما علم فيها من الفضل. وقال الحسن البصرى رحمه الله: أمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون ويتبعه فيها المؤمنون وإن كان عن مشورتهم غنيا<sup>(١)</sup>.

فعلينا أن نعمل على أن تكون العلاقة بيننا هي علاقة التشاور. والتشاور يحتاج منا إلى أخوة صادقة، وإلى قلوب مفتوحة، وإلى حرية فى الرأى، وإلى التزام بالشرع الشريف الذى يأمرنا بأن نكون أمةً واحدةً. ولا مناص لنا فى تحقيق ذلك إلا بالشورى؛ فهى التى من شأنها جمعُ كلمة المسلمين، وتحقيقُ وحدةِ صفهم، وأما تركها ففيه الفرقةُ والضيعةُ التى ذمها الله فى كتابه؛ فقال سبحانه: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٣]. وقال سبحانه فى نهيه لنا أن نتبع سنن الذين كفروا: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٥]. وأرشدنا ربنا بالسير على صراطه المستقيم وعدم التفرق فى السبل

المختلفة. فقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا  
الْأَسْبَلَ فَنَفَرَقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿  
[سورة الأنعام: الآية ١٥٣].

والوحدة هي وحى الله إلى أنبيائه جميعهم وإلى متبعيهم من الأمم  
السابقة وأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ قال تعالى:  
﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا  
بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ  
مَا لَدَعُوهُمْ إِلَهِي اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿  
[سورة الشورى: الآية ١٣].

### مفهوم الديمقراطية من منظور إسلامي:

من المشاهد في العصر الحاضر أنه قد برزَ الجدل المقارن بين الشورى  
والديمقراطية، خاصةً بعد سيادة فكرة الديمقراطية في الغرب حتى  
أصبحت هي السمة الأساسية للحكم هناك، وهي تقوم على مفاهيم  
عديدة كالمواطنة والحرية.. وغيرها.

وأكثرُ من يرفضها يتعللُ بأنها مبدأٌ مستورد من بلاد الغرب، ولا غرو  
في أن نأخذ منها ما لا يتعارض مع ثوابت ديننا الحنيف؛ فقد تطورت  
أوضاع الدولة الإسلامية منذ نشأتها حتى نهاية الخلافة العثمانية، وزاد  
تعقد الحياة وتشابكُ المصالح وتداخلها حتى غدا المسلمون في حاجةٍ إلى  
الابتكار والتجديد والعملِ بنظمٍ سياسيةٍ حديثةٍ لإدارة شؤونهم وتحقيق  
مقصد الشرع في حياتهم.

ففى عهد عمر بن الخطاب انفتح المسلمون على العالم واتساعه ، ووجدُ المسلمون أنفسهم فى حاجةٍ إلى الاستفادة من الأنظمة السياسية التى اطلعوا عليها فى بلاد الفتح ، فعمل عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه على تدوين الدواوين ، وتدريب المسلمين على العمل فيها .

ثم بعد ذلك وفى عصر الدولة الأموية فكَّرَ المسلمون فى صكِّ عدلة تخصهم وتحفظ عليهم استقلالهم ، وفى عصر الدولة العباسية تحقق للقضاء الفصل والاستقلال عن السلطة التنفيذية ، وحصل للقضاة سلطان عظيم ، وهكذا أخذت الدول الإسلامية عبر عصورها تنشدُ التطور والتحديثَ فى أنظمتها السياسية نحو الأصب ، وكان الإسلامُ فى كل تلك الأطوار والمراحل إطارًا يضبطها ويدفعها نحو ذلك . ولم يقف أبداً فى يوم من الأيام أمامها عائقاً فى سبيل تفاعلها مع المستجدات أو استحداثها للأنظمة ، بل كان دوماً بما وضعه للمجتمع والدولة من مبادئٍ ومقاصدٍ وغاياتٍ فاضلةٍ ومتعاليةٍ ، يُرغَّبُها فى العملِ والتفكيرِ فى كل صالح وأصلح .

والمطلع على القوائم الرئيسة التى قام عليها النظام السياسى الإسلامى من أول يوم يجدُها قوائمَ رفيعةَ المقامِ والقدرِ ، ولم يحتج المسلمون يوماً إلا إلى تفعيل تلك القوائم وتثبيتها واتخاذ ما يلزم لذلك من الوسائلِ والسُّبلِ التى تتغير من عصرٍ إلى آخر .

١ - منذ وفاة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتمع المسلمون فى الثقيفة لاختيار قائدٍ لهم وخليفةٍ لرسول الله علموا حينها أنهم مصدرُ السلطةِ وموضعُ الاختيارِ ، وأن حاكمهم لا بد أن يشاركوا فى

اختياره، وأن يكون تعيينه عن رضى منهم، لا قهراً ولا استبداداً. وفي تراثنا الفقهي نَظَرَ الفقهاء لهذه العملية بمسألة البيعة التي تطورت في الأنظمة الحديثة إلى الانتخاب أو الاختيار.

٢ - عرف المسلمون منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم الشورى والمشاركة العامة في حلّ القضايا التي تخصّ الأمة.

٣ - عرف المسلمون بل وأوجب عليهم شرعهم النصح للحاكم وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.

ولقد ترك الإسلام لأتباعه حرية الاختيار أو التنقل بين مختلف الأنظمة التي من شأنها أن ترتب تلك الحقوق السياسية وتضمن سريانها في المجتمع على أحسن صورة؛ فالوسائل والنظم تتغير وتتطور ولكن المقاصد والغايات واحدة، ولذلك فمن محاسن الشريعة الإسلامية أنها صنعت ذلك حتى تؤمن لمعتنقيها عدم الجمود أو التقيّد بشكل معين يعيق حركة حياتهم في مستحدثاتها.

وجوهر الديمقراطية التي ساعدت الأوروبيين في التخلص من ظلم الطغاة وتجبر الملوك وكهنة الكنيسة لا يمكن أن يكون الإسلام نابذاً لها، وهو الذي دعا إلى الحرية وإلى العدالة؛ حيث إنه قد أقر منذ بدايته للشعوب بحقها في اختيار حاكميها، فإن كانت الديمقراطية قد ابتكرت أشكالاً لتحقيق ذلك من انتخاب واستفتاء وترجيح حكم الأكثرية، وتعدّد الأحزاب السياسية. وحرية الصحافة، واستقلال القضاء، وحق الأقلية في المعارضة، فلا حرج أو غضاضة في اتباع ما صلح منها ولم يتعارض مع دين الإسلام.

والدين الإسلامي لا يمنع اقتباس فكرة أو نظرية من غير المسلمين لتحقيق مقاصده، فلقد اقتبس رسول الله صلى الله عليه وسلم فكرة الخندق من الفرس، كما أنه جعل أسرى بدر المشركين يُعلّمون المسلمين القراءة والكتابة مقابل فكاكهم.

وكذلك اقتبس صلى الله عليه وسلم ختم كُتبه من الملوك، واقتبس عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه نظامَ الدواوين ونظامَ الخراج، فالحكمةُ ضالةُ المؤمن أنى وجدها فهو أحقُّ بها.

ولا يلزم من الدعوة إلى الديمقراطية اعتبارُ حكم الشعب بديلاً عن حُكم الله عز وجل؛ إذ لا تناقضَ بينهما، فالديمقراطيةُ المبتغاةُ للبلاد الإسلامية تُعدُّ شكلاً للحكم يُجسدُ مبادئ الإسلام السياسية في اختيار الحاكم، وإقرارِ الشورى، والنصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومقاومة الجور.

فعندما يطالب المسلمون بالديمقراطية فهم يطالبون بوسيلةٍ تساعدهم على تحقيق أهدافِ حياةٍ كريمةٍ يستطيعون من خلالها الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، ولن يضرهم أبداً أن يستخدموا لفظاً غريباً - كالديمقراطية - فإن مدار الحكم ليس على الأسماء، بل على المسميات والمضامين.

وبالرغم من كل ذلك، فإننا لا نستطيعُ أبداً اعتبارَ الشورى نسخةً من الديمقراطية، فالمسلم لا يأخذُ كل ما فى الديمقراطية الغربية وينفذهُ بغير عقلٍ ووعي، وإنما عليه أن يُقرَّ ما فى أفكار الآخرين من صوابٍ ويبتعدَ عن الخطأ، فهو لا يقلد، وإنما يستفيدُ من تجارب الآخرين من خلال الميزان الذى وهبه الله وهو ميزانُ الشرع ثم العقل.

وحتى دعاة الديمقراطية الغربية يتفقون معنا أن الفكر الإنسانى ليس

معصومًا، وإنما يخضع للإضافة والتغيير والانتقاء، كذلك الديمقراطية بمفهومها الغربي تحتاج إلى تعديل إذا ما أردنا جعلها ديمقراطية إسلامية عربية. وهذا لتناسب ثقافتنا وما ساد بيننا من مفاهيم وعادات تحفظ لنا الأمن والاستقرار.

والديمقراطية التي يُقرها الإسلام ويدعو إليها ديمقراطية لا تجعل ثوابت الأمة من عقائد وأعرافٍ محلًا للإلغاء والتبديد، فكما أن الديمقراطية الغربية تجعل الحفاظ على العلمانية وتكريم السامية خطوطًا حمراء لا يجوز للديمقراطية تخطيها، كذلك يرى المسلمون أن العقائد الإسلامية والثوابت الدينية والعرفية للمجتمع المسلم خطوط حمراء وإطار للعمل الديمقراطي.

فالمسلمون ينادون بالديمقراطية التي لا تعتدى على حقوقهم في المحافظة على هويتهم، وعقيدتهم، وشخصيتهم، ولا تجعل ثوابتهم الدينية محلًا للتبديل والتغيير، وأما إذا كانت الديمقراطية شيئًا يفرض علينا ليحقق للغرب الهيمنة والسيطرة على حياتنا ومقدراتنا، فإنها حينئذ تكون مذمومة ومرفوضة؛ لأنها تكون شكلا من أشكال الاحتلال والسيطرة.

\*\*\*

## ثانياً: الأمن الاجتماعي :

وهو موضوع غايةً في الأهمية؛ حيث لا بد من الاهتمام بالحراك الاجتماعي اهتماماً عملياً ونظرياً، وذلك هو المحضن الأساس لكل حراك فكري أو سياسي أو اقتصادي، ولذلك كانت له الأولوية. بل إنه يُعدُّ ضابط الإيقاع لكل لونٍ من ألوان تنمية المجتمع.

ونستهل الحديث عن الأمن الاجتماعي بعرض أفكار ثلاث:

**الأولى:** أنه ينبغي علينا أن نضع قاعدةً مهمةً، نفهمها بعمق، وهي تُمثل أهم قواعد التعايش في المجتمع المعاصر، وهي أن الأمن قبل الإيمان، وقد يفهم بعض المتدينين هذه القاعدة على غير وجهها، فيفهمونها منها مثلاً: أننا نُؤخر ما واجبه التقديم؛ حيث إن الإيمان هو سبب الأمن، فكيف نقدّم الأمن عليه شرعاً، وهو مؤخرٌ عنه طبعاً باعتباره نتيجة للإيمان، والنتيجة تلي السبب، ولا تتقدّم عليه؟

حتى قال محمد إقبال في حكمته:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحيى ديناً

وهو كلام صحيح في نفسه، ويؤيده قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٨٢]. لكن المقصود من القاعدة أنه لا يجوز للإنسان تحت دعوى تحصيل الإيمان أو مقتضيات ذلك الإيمان أن يُخلّ بالأمن؛ لأنه إذا أُخلّ بالأمن كان ذلك:

أولاً: مخالفاً للإيمان. وثانياً: مُضيعاً للمؤمنين، وثالثاً: يضيعُ

الحالة التي يمكن فيها للمؤمن أن يمارس إيمانه، ولذلك نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة يرفض الدعوة إلى الصدام، وإلى إخلال الأمن فيها رفضاً تاماً، بل ويغضب عندما يوضع الإخلال بالأمن كخيار في مقابلة تطبيق الإيمان، ومن ذلك قول العباس بن عبادة بن نضلة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: **وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَئِنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنِّي غَدًا بِأَسْيَافِنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَمْ أَوْمَرْ بِذَلِكَ»**<sup>(١)</sup>.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل الكعبة المشرفة وهي منصوب فيها الأصنام، فلم يهدمها ولم يأمر بهدمها. مع أنها محض شرك.

وارتبط البيت الحرام في القرآن الكريم بالأمن على صورتين: أمن كوني، وأمن تكليفي شرعي. فأما الأمن الكوني الحقيقي فهو منحة الله تعالى لهذا البيت على مر العصور، حتى أصبح مظهرًا من مظاهر الحماية الربانية. فلم تزد الحوادث العدودة التي حصلت فيه عبر التاريخ إلا حصانة وشموخًا، ولم تؤثر في بقاءه آمنة للناس وملاذًا للخائفين، حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [سورة البقرة: الآية ١٢٥] بل ويقسم الله بالبيت الحرام من جهة أمنه، فيقول سبحانه: ﴿وَهَذَا أَلْبَدُ الْأَمِينِ﴾ [سورة التين: الآية ٣]، وقال جل شأنه ممتناً على ساكني الحرم الشريف: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ

رَزَقًا مِّنْ لَّدُنَّا ﴿﴾ [سورة القصص: الآية ٥٧] وقال أيضا: ﴿﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيَخْطَفُ النَّاسُ مِّنْ حَوْلِهِمْ ﴿﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٦٧] وقال أيضا: ﴿﴾ فليَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ﴿﴾ [سورة قريش: الآية ٤:٣]

والأمن الكوني هو أحد المعنيين في قوله تعالى ﴿﴾ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ﴿﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] وذلك إذا فهم الخبر على حاله، ويأتى الأمن التكليفي الشرعى مبيناً للتوافق والاتساق بين الكون والوحي، فإن الكون هو كتاب الله المنظور، والوحي هو كتابه المسطور، وكلاهما من عند الله، ذاك من عالم الخلق وهذا من عالم الأمر ﴿﴾ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴿﴾، فيأمر الله تعالى عباده أن يؤمنوا من دخل الحرم على ما هو المشهور من معنى قوله تعالى: ﴿﴾ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴿﴾ من أنه خبر في قوة الإنشاء كما في قوله: ﴿﴾ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴿﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٣] وقوله تعالى: ﴿﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُحِلُّوا سَعْيَرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَئِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْبَغُونَ فَضُلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَكُمْ شَتَاتَان قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴿﴾ [سورة المائدة: الآية ٢]، بل يؤكد القرآن على إقراره للأمن التكليفي ما تجاوز به الأفعال والنيات والعزائم، فيجعل مجرد إرادة الإفساد في الحرم كبيرة من كبائر الذنوب تستوجب العذاب الأليم، قال تعالى: ﴿﴾ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿﴾ [سورة الحج: الآية ٢٥].

وإن الإسلام حريصٌ على إقرار الأمن للإنسان وتوفيره له قبل تكليفه بالعبادة، ولذلك لما بشر الله عباده بدخول حرمة قدّم البشارة بالأمن على البشارة بالنسك. ولم يكتف بتقديمه على العبادة حتى ختمها به أيضاً، فقال: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٧] فى إشارة إلى أن توفير الأمن فى المجتمع الإسلامى مقصد من أهم مقاصد الشرع الشريف.

ومما يؤكد هذا الفهم فعل سيدنا إبراهيم عليه السلام حين قدّم فى دعائه طلب الأمان على الإيمان فيما حكاه عنه ربه جل وعلا بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٣٥]، وهذا المعنى الحنيفى هو الذى دعا نبي الله هارون عليه السلام إلى ترك التصدى لمن عصوا سيدنا موسى من اليهود باتخاذهم العجل مراعاة لأمر موسى عليه السلام له بوحدة الكلمة؛ قال تعالى: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [سورة طه: الآية ٩٤]، وقد علمنا الله تعالى أن نقتدى بالأنبياء ونتأسى بهم؛ فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَتْهُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٠].

ونحن مأمورون باتباع ملة سيدنا إبراهيم على جهة الخصوص، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٣].

وهذا أمرٌ يجب أن نتفق عليه، وهو يمثلُ حاجساً لدى الشباب المتطرف الذى يريد أن يقدمَ تصوره الإيمانى على أمن المجتمع واستقراره، ولقد

امتدَّ هذا الهاجسُ حتى إلى بعضِ العلماء، فتراهم يدعون إلى تدميرِ الأمن الاجتماعي من أجل تغيير منكر، ربما لا يكون هذا المنكر محل إجماع، وإنما وقع فيه اختلافٌ، ويتناسون القضايا العقائدية والشرعية العظيمة التي عليها مبنى الدين ومستقرُّه من هوجة الانشغال بما اطلعوا عليه من منكر حادث في المجتمع، وترى منهم تهيجاً للشباب الصغار قليلى العلم حتى يُقدِّموا على تغيير هذا المنكر الذى اطلع عليه الشيخ (الداعى إلى تغييره) متجاوزين حق الإمام فى سياسة أمور الدين والدنيا داخل النظام العام للمجتمع، وما وقعنا فى كل ذلك إلا بتجاوزنا على القاعدة التي بمقتضاها نقدم الأمن الاجتماعي على الأمن الدينى أو الشرعى، قال الإمام الغزالي فى كتابه "الاقتصاد فى الاعتقاد": «نظام الدين لا يَحْصُلُ إلا بنظام الدنيا»<sup>(١)</sup>.

ويقول الماوردى: اعلم أن صلاح الدنيا معتبرٌ من وجهين؛ أولهما: ما ينتظم به أمورُ جملتها. والثانى: ما يصلح به حال كل واحد من أهلها<sup>(٢)</sup>.

**والثانية:** هى أن الأمن الاجتماعي أمرٌ مركَّبٌ ومعقَّد، ولا بد لدراسته والتعامل معه من منظومة مركبة بإزائه، تشترك فيها عدة جهات: الحكومة، وجمعياتُ العمل الأهلى، والمؤسسات المختلفة [المدرسة- المسجد - الإعلام..] معاً.

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٣٥ .

(٢) أدب الدنيا والدين ص ١٤٦ .

وأن واحدةً من هذه المنظومة لا تكفى وحدها، كما يجب أن تكون منظومةً شاملةً تهتم بالداخل والخارج، ولا يكفى الاهتمام بجانب دون آخر، ومن هنا كان الاهتمام بقضايا العالم جزءاً لا يتجزأ من الأمن الاجتماعي. ويتبع هذه الفكرة استعمال التجارب والخبرات التي نجحت عبر التاريخ كالوقف، والزكاة، في القيام بواجب الأمة مع الدولة سوياً في مجال الصحة والتعليم والبحث العلمي، والتكافل الاجتماعي من رعاية المسنين، والمشردين، واليتامى، والأرامل، والمعوقين، وشئون الحياة كالفنون والآداب والعمارة والرياضة، وأن أساس ذلك كله سواء على مستوى الفرد أو على مستوى المجتمع أن نعطي المحتاج سناً يصطادُ بها، لا أن نعطيه السمكة يطعمها هو وأسرته ويبقى في دائرة العوز لا يخرج عنها، ولكن مع ذلك يجب مراعاة كفاية حد الكفاية التي تقدم للإنسان ضروريات العيشة. فمن أبناء المجتمع من افتقد حد الكفاية وكذلك عدم الكفاءة على العمل، فهذا يرعاه المجتمع وأسرته رعايةً كريمةً دون تكليفه ما لا طاقة له به.

**والثالثة:** هي المطالبة بالمزيد من إطلاق يدي الجمعيات الأهلية والمؤسسات الخيرية للقيام بدورها؛ لأن كثيراً من القوانين والإجراءات تُعيقها عن أداء واجبها، وحين ننظرُ إلى أمريكا مثلاً نجد فيها أكثر من مليون ونصف مؤسسة خيرية؛ مما يُكسب مجتمعهم ثراءً كثيراً في خدمة الإنسان. والحمد لله أن الدستور الجديد لمصر لم يُغفل مثل هذه التعقيدات البيروقراطية فنصَّ على أن تأسس جمعيات العمل المدني بمجرد التسجيل والإخطار.

وهناك علاقةٌ وطيدةٌ في المفهوم الإسلامي بين الأمن الاجتماعي وتحقيق التعايش السلمي بين أفراد المجتمع ، قال تعالى : ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٨٢] كما صرح النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث عن هذا الترابط بين الأمن والإيمان فقال في حَجَّةِ الْوَدَاعِ : «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ أَمَنْ مِنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ»<sup>(١)</sup>.

والإيمانُ هو أعظمُ السبل لإقرار السلام الاجتماعي ، فإن الإيمان عقدٌ قلبيُّ ، ومن المسلمَّ به في علم الاجتماع أن الممارسات البشرية والعلاقات الاجتماعية المنبثقة عن الاعتقادات أكبرُ فاعليةً وتأثيراً ، وأقدرُ على الدوام والاستمرارية من غيرها ، ولذلك عدَّ الفلاسفةُ المعتقداتِ ضرورةً اجتماعيةً ، كما في نظرية سَوِّقِ المعتقداتِ الدينية وفقَّ المنفعةِ والتي يُعبرُ عنها المفكرُ الإنجليزي جون جيرمي بنتام (١٧٤٨م - ١٨٣٢م) في كتابه «أصول الشرائع».

والأمن والسلام في الإسلام مبدؤهما من داخلِ الإنسان لا من خارجه ؛ فبقدر ما يمتلئ الإنسانُ في داخله بالاطمئنان والسلام بقدر ما يعم على من حوله ويفيض بالأمن والرحمة ، والإيمانُ بالله تعالى هو الذي يحققُ الأمنَ الداخلي ، والأمنُ الداخليُّ ينعكسُ على أمنِ الشخصِ الخارجي ، وبالتالي على أمنِ المجتمعِ الخارجي.

(١) مسند أحمد (مسند فضالة بن عبيد الأنصاري) ٣٩ / ٣٨١.

فالإيمان بالله يجعلُ صاحبه يبحثُ عن مرضى الله تعالى ليأتي بها، وعن مساخطه لينتهى عنها، وأما أهلُ الفجور فإنهم لا يابهون لمراقبة الله ولا يحرصون على اتباع أوامره، قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٩٧].

والأمن في الشريعة الإسلامية يلتمس في المقاصد الخمسة الكبرى وهي: حفظ النفس والعقل والدين والعرض والمال. والتي تتغيا توفير الأمن والأمان للمكلف حتى يستطيع أن يقوم بما كلفه الله تعالى به من عبادة وعمارة وتزكية على الوجه الذي يحقق مراد الله تعالى من خلقه، ونحن نصحُ تقديم حفظ النفس والعقل على حفظ الدين في ترتيب تلك المقاصد، لأن الحفاظ عليهما هو سبب وعلّة في حفظ الدين، ولا يمكن أن يحقق الدين مراده وغايته ويبسط ظلّاله الوارفة على المجتمع إلا بتأمين النفس ثم العقل والحفاظ عليهما، وبدلُ على ذلك أن الشرع جعل فقدان العقل مانعا من موانع التكليف، وجعل فقدان الأمن عذرا للمكلف في ترك بعض الأحكام الشرعية أو تخفيفها.

إن الدين يدعونا إلى الإيمان بالمطلق والقيم الفاضلة وموازين العدالة والحق التي لا تتبدل بتبدل الأعراف أو المصالح أو أنماط الحضارة المختلفة، وهو ما عبّر عنه المتكلمون في علم التوحيد بقولهم: «حقائق الأشياء ثابتة. والعلمُ بها متحقق». وهذا من شأنه أن يشكّل شخصية المسلم التي تجمع بين الواقعية والثالية، بين الثبات والرونة، وبين المعرفة والإيمان بالغيب والشهادة على حد سواء. حيث قال تعالى واصفا عباده المتقين: ﴿ مِنْ أَسْمَاءَ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَهُمْ بِمَا كَانُوا

يَكْسِبُونَ ﴿١٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ قَائِمُونَ ﴿١٧﴾

أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ ﴿ [سورة البقرة: الآية ٢-٤]

وكذلك فإن الأسس التي وضعها الإسلام للعلاقة بين الرجل والمرأة في محيط الأسرة والمجتمع حرصت على تحقيق الأمن الاجتماعي والسلام القائم على المساواة والاحترام المتبادل وتقدير قيمة الإنسان وكرامته التي وهبها الله تعالى للرجل والمرأة على حد سواء، مع زيادة أمر للرجل بالإحسان والبر بالمرأة الزوجة والأم والبنت والأخت في أمور افترضها كواجبات أو مندوبات ترفع بها درجة الرجل المحسن عند الله وعند خلقه.

ارتباط الأمن الاجتماعي بمفهوم النظام القانوني العام :

سعى الفقه القانوني لتأصيل فكرة النظام العام نظرياً بمحاولات كثيرة. إلا أن هذه المحاولات لم تتمكن من إبراز معالم هذا النظام العام ومحدداته، إلا أنها كانت جهوداً مضيئة كاشفة عن الغموض الذي اكتنف تلك الفكرة.

وإذا نظرنا إلى فكرة النظام العام في مجال القانون الخاص وجدناها تُعرف على أنها : الأساس السياسي والاجتماعي والخلقي الذي يقوم عليه كيان الدولة كما ترسمه القوانين النافذة فيها. أو بعبارة أخرى هي مجموعة القواعد القانونية التي تنظم المصالح التي تهم المجتمع مباشرة أكثر مما تهم الأفراد، سواء كانت تلك المصالح سياسية أو اجتماعية أو خلقية<sup>(١)</sup>.

(١) مدخل للعلوم القانونية، د. سليمان مرقص، ص ٧٧، ط ٢ دار النشر للجامعات المصرية.

فعرفت فكرة النظام العام في القانون باعتبارها ما يتحتم على الإدارة صيانته وهي بصدد قيامها بوظيفة الضبط الإداري، حيث ينطوي مدلول الفكرة على إشاعة الأمن العام، وصيانة الصحة العامة، وتوفير السكينة العامة<sup>(١)</sup>. وهناك إشكالية في وضع تعريف دقيق للنظام القانوني العام، وسبب ذلك شدة النسبية والمرونة التي تتمتع بها فكرة النظام العام، فهي فكرة تختلف باختلاف الزمان والمكان والأحوال. وتتأثر بشكل مباشر بوجهة النظر الجمعية للمجتمع، فما يُعدُّ في زمنٍ معينٍ من النظام العام قد لا يعد كذلك في زمنٍ آخر في نفس المكان، فنظام الرق الذي لم يكن مخالفاً للنظام العام في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، غداً مخالفاً له في نصفه الثاني.

وإذا أردنا وضع معالم لمفهوم النظام العام القانوني نجد أن غالب المقاربات الفقهية لمفهوم فكرة النظام العام، تكادُ تنحصر في التعريف الغائي للمفهوم، بمعنى النظر إلى ما تستهدفه فكرة النظام العام من حماية المصالح الكلية العليا للدولة، عن طريق تجسيد الفكرة لهيكل الأسس والقيم التي تبني عليها الدولة كيائها سواء في ذلك الأسس الأيديولوجية (العقدية) أم السياسية أم الاجتماعية أم الاقتصادية أم الخلقية. وبما توفره من سياسة تحمي جملة هذه الأسس تمكّنها من تحقيق بُغيتها وإشباع المستهدف من مصالح كلية.

وعلى هذا الاعتبار الغائي لفكرة النظام العام صيغت تعريفاتُ الفقه المختلفة لمفهوم هذه الفكرة من خلال هذه الزاوية.

(١) مبادئ القانون الإداري. د. توفيق شحاتة، ١/ ٣٣٢، الطبعة الأولى دار النشر للجامعات المصرية.

## معالمُ النظام العام من خلال وظائفه :

وقد تتضح معالم النظام العام من خلال التعرفِ على مجموعةٍ من الوظائفِ التي يقوم بها :

### ١- تأسيسُ مشروعية القواعد القانونية:

وهو ما يمكن التعبير عنه بمستوى المشروعية العليا لبعض القواعد القانونية، تلك المشروعية التي تُعدُّ أساساً لتبرير مقدار ما تتمتع به هذه القواعد القانونية من قدرات الضبط على الإرادة والحد من سلطانها، بما يمنحها مصداقيةً عامةً فوقَ عاديةٍ.

### ٢- أداة قانونية للدولة:

فهو أهمُّ أدواتِ الدولة القانونية لتحقيق أهدافها المخصوصة المتميزة عن أهداف الجماعة ومصالحها، وذلك يكون حسب تصورها الخاص لواقع المصلحة العامة كما في النظام القانوني العام الأوروبي.

### ٣- الوظيفة الاجتماعية لفكرة النظام العام:

فكرة النظام العام بقواعدها الآمرة الناهية حدٌ لسلطان الإرادة في إبرام العقود والاتفاقات : الاتفاقُ المخالفُ للنظام العام أو الآداب يكون باطلاً ولو لم يكن فيه خروجٌ على قاعدة قانونية معينة أو نصٍ تشريعيٍّ معينٍ<sup>(١)</sup>.

(١) راجع : دروس في مقدمة الدراسات القانونية، للدكتور محمود جمال زكي، ص ١٧٣.

وذلك على اعتبار أن جوهر القواعد التي تتعلق بالنظام العام هو فرض إرادة المشرع والتضحية بإرادة الأفراد، أو بما يسمى بمبدأ (سلطان الإرادة)، وجزاؤها بطلان هذه الإرادة الفردية إن خالفت إرادة المشرع. الوضع الذي عبر عنه بكون قواعد السلوك الاجتماعي الموجهة إلى الأفراد قواعداً إلزامية تقف من ورائها سلطة الدولة تحميها وتفرضها قهراً. وعليه يتبلور لفكرة النظام العام هدفٌ قصديٌّ متميزٌ عن سابقه<sup>(١)</sup>.

ومما سبق يمكن القول بأن جوهر مفهوم فكرة النظام العام إنما يتمثل في كونه وصفاً تكليفيًا بالأساس يرد على سبيل الاقتضاء حتمًا. فما تستقر عليه الجماعة أو تقرره الدولة من أوضاع تكليفية تجرى بالنسبة لكل منهما مجرى القيم العليا، والأسس الأصلية، بحيث يقوى تماسكهما بها، فيكون نظاماً عاماً سواء تفرع عنه حكم تكليفي فرعي أم لا.

والمقصود من الوضع التكليفي هو الإطّار الضاغط على الإرادة الفردية الذي يحد من سلطان حركتها، وهي بصدد تصرف قانوني، فيفرض اقتضاء على سبيل الإلزام أو أداء أو انتهاء. بحيث لا يكون بالمكنة الفردية سوى الانصياع لهذا الوضع الإلزامي.

كما يمكن اعتبار النظام العام حداً على سلطان الإرادة وهي بصدد تصرف قانوني باعتباره فرضاً لإرادة المشرع على إرادة الأفراد، أي هو التضحية بسلطان الإرادة الفردية لصالح إرادة المجموع. لذا عدّ حداً

(١) الأحوال الشخصية للمواطنين غير المسلمين وللأجانب، للدكتور أحمد سلامة، ص

٣٤١ طبعة دار الفكر العربي. ووقاية النظام الاجتماعي، للدكتور محمد عصفور الكتاب الأول

على سلطان إرادتهم على نحو ما، ينحسم معه أى نزاع قد يثور<sup>(١)</sup>.  
 لقد أرسل الله تعالى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بشريعة الإسلام  
 بعدما غدت البشرية مهياًة لمثل تلك الرسالة التي تخرج الإنسان إلى حيز  
 المواجهة والتحدى لصعوبات الحياة والوجود. فلم تعد الرسالة الإلهية  
 مجرد وجدانيات تغذى روح الإنسان وتربطه بخالقه فقط. بل تعلقت  
 الرسالة بكل جوانب حياة الإنسان السياسية والاجتماعية والاقتصادية .  
 تبدأ من تحقيق الأمن الروحي وطمأنينة النفس بصحيح الاعتقاد ثم تنتقل  
 إلى تحقيق الأمن المجتمعي فى مختلف مناحى الحياة.  
 حيث قَدَمَ الإسلامُ للإنسانية نموذجاً معرفياً جمع بين ما هو رباني  
 تعلق بحقوق الرب على العبد وما هو إنساني تعلق بحقوق الإنسان على  
 أخيه الإنسان.

فالربانية ألزمت الإنسان بالتوجه إلى خالقه والارتباط به. لأنه  
 دائماً يذكر أن مرجعه ومآله إليه فى الآخرة قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ  
 الْمُنْتَهَىٰ﴾ [سورة النجم : الآية ٤٢]

وجعلت جميع الغايات والأهداف الإنسانية لا تعدو فى حقيقتها أن  
 تكون خادمة للهدف الأسمى، وهو التماس رضاء الله وحسن مثوبته،  
 والربانية مصدرها ومنبعها الوحي المنزّل من رب العالمين، ولذا فإن كل  
 صغيرة وكبيرة فى شريعة الإسلام مردّها إلى وحي الله المحفوظ والمنزه عن

(١) دروس فى مقدمة الدراسات القانونية، للدكتور محمود جمال الدين ص ١٧٣. وتنازع  
 القوانين، للدكتور منصور مصطفى منصور. ص ١٢٨، والأحوال الشخصية للمواطنين غير المسلمين  
 وللأجانب، للدكتور أحمد سلامة ص ٣٤١.

كل نقص أو تحريف أو تبديل، والريانية تُعنى الاحتكام إلى ذلك الوحي وعدم الخروج على ما جاء فيه، فهو الأمر الناهي، المحلل المحرم، المكلف الملزم. وما المجتهدون أو واضعو القوانين في الدولة الإسلامية إلا الذين يستطيعون الكشف والإظهار لأحكام الله المستنبطة من ذلك الوحي، وفقاً لأصول وقواعد منضبطة.

وَيُقْصَدُ بما هو إنساني أن الإسلام جعل الإنسان وسعادته ومصالحه وتنمية حياته وحضارته هدفاً وغايةً، جاءت الأحكام والتكاليف كلها مؤديةً إليه وساعيةً في تحقيقها، راعت الضرورات الحياتية والحاجيات وكذلك التحسينيات.

\* \* \*

### ثالثاً: الأمن المجتمعي:

وأقدم بين يدي الكلام على الأمن المجتمعي الفرق بين الأمن الاجتماعي - سبق الحديث عنه في العنصر السابق - والأمن المجتمعي . وهو يتمثل في أن الأول يتعلق بأمن الأفراد وعموم علاقتهم معاً ، أما الثاني فإنه يتعلق بالمجتمع كدولة أو هيئة نظامية .

ومبنى الأمن المجتمعي إنشاءً نظام عام في المجتمع يلتزم به عموم أفرادها ، حتى تكون الدولة قادرة على المشاركة الدولية العالمية . والعمل مع بقية أعضاء الجماعة الإنسانية على البناء والتعمير واحترام المبادئ الحضارية المشتركة ، قال تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [سورة هود : الآية ٦١] .

وكل جماعة من البشر في حاجة شديدة لأن يكون لهم نظام و رابط دولي يعبر عنهم ويضبط حركتهم وسلوكياتهم الجماعية تجاه الجماعات الأخرى .

ويقوم الأمن المجتمعي على بناء نظام يفرضه سلطان يأمر وينهى ، ويملك القوة لكفافة المطيع ومعاقبة المخالف ، وتلك القوة تسلب من إرادة الفرد وحرية من أجل مصلحة الجماعة وضرورات اجتماعها ، ولا بد أن تنضبط تلك النظم وتحكم بالمنطق والمصلحة العامة التي تراعى جوانب الدين والاقتصاد والخلق والاجتماع وغير ذلك .

وقد اكتشفت الدولة الحديثة استحالة تهميش دور القبول الجمعي بساحة الشرعية القانونية ، إذ وجدت أن القاعدة القانونية المسنونة تتطلب قبولاً جمعياً ، وإلا تعرضت لجميع صور التمصلص والخرق كلما

أمكن ذلك. الأمر الذي لا تستقيم معه أوضاع هذه القواعد القانونية المشرعة بالأساس لضبط السلوك التلقائي وتهذيبه، وهو ما عجز عن الاضطلاع به عنصر الجبر والجزاء وحدهما.

فكان من الضروري ابتداءً أدوات قانونية تمكّن الدولة من حمل الجماعة على هذا التنبّل العام، ولا سبيل لذلك إلا بوجود نظام عام للقانون عن طريق نسبة القاعدة المراد إقناع الجماعة بها إلى هذه الفكرة، باعتبار أن تلك القاعدة موفّرة لحماية عليا للمصالح الكلية للجماعة التي لن تقوم لها قائمة إلا بها.

ومن هنا تبرز أهمية فكرة النظام العام لصالح الدولة الحديثة، حيث تقدم الإيحاء العام للقبول الجمعي لأيّ قاعدة ترغّب الدولة في توفير أكبر قدر من الضمان لها من حيث الاحترام والانصياع والتفعيل نحو ما يحقق للدولة أهدافها من التشريعات.

\*\*\*

## رابعاً: الأمن الاقتصادي:

ومبناه الحفاظ على المال الذي هو أحد المقاصد الخمسة الكبرى في الشريعة الإسلامية، حيث دعت الشريعة الإنسان إلى العمل والكسب من أجل توفير أسباب العيش، وأمرته بالسعي في الأرض والابتغاء من فضل الله وركوب البحر والانتفاع بما فيه من نعم وخيرات.

كما أمرت الشريعة المسلم بالزكاة والوقف ليتحقق التكافل الاجتماعي في المجتمع، ونهت عن الكنز والبخل والاحتكار لأن عاقبته وخيمة على أمن المجتمع الاقتصادي؛ قال تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [سورة الحشر: الآية 7].

فالأمن الاقتصادي يتحقق بسد فجوة الجوع في المجتمع، حيث مدح الله تعالى من يطعمون الطعام ويقومون بإنفاق الأموال. بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [سورة الإنسان: الآية 8]، وذم لنا ربنا صنفاً من الناس يحتجون بالقدر كي يمنعوا الطعام عن المحتاجين إليه فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سورة يس: الآية 47].

وامتن الله على قريش بأن كفل لها الأمن المجتمعي بشقيه: الأمن من الجوع، والأمن من الخوف؛ فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٢﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [سورة قريش: الآية ٤٠٣].  
وورد في سنة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يدل على أن

سَدَ فَجْوَةَ الْجُوعِ أَمْرٌ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَخَاطِبَا النَّاسِ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»<sup>(١)</sup>. وقوله صلى الله عليه وسلم: «أَطْعِمُوا الْجَائِعَ، وَعَوِّدُوا الْمَرِيضَ، وَفَكُّوا الْعَانِيَ»<sup>(٢)</sup>.

وما يكون ذلك إلا لأن الطعام من الضرورات الإنسانية الأساسية، والضرورة هي التي إن فقدتها الإنسان هلك أو قارب على الهلاك، ومفهوم الطعام عند المسلمين في تراثهم يتمثل في القوت، والفاكهة، والإصلاح، والدواء.

وَيُقْصَدُ بِالْقَوْتِ: مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ لِيَقُومَ جِسْمُهُ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ، وَمَثَلُوا لَهُ بِالْبَلْحِ وَالْعَنْبِ وَالْحَبُوبِ كَالْقَمْحِ، وَالشَّعِيرِ، وَالْفُولِ، وَالذَّرَّةِ. وَيُقْصَدُ بِالْفَاكِهِةِ: الْخَضِرَاوَاتُ وَالْفَوَاكِهِةُ بِمَفْهُومِهَا الزَّرَاعِي فِي عَصْرِنَا هَذَا، وَالْإِصْلَاحُ هُوَ: الْمَلْحُ وَالْبَهَارَاتُ وَنَحْوَهَا، وَهِيَ تُصْلِحُ الطَّعَامَ وَتَجْعَلُهُ أَكْثَرَ اسْتِغَاغَةً حَتَّى يَقْبَلَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ، وَالْمَاءُ وَالسَّوَانِلُ تَدْخُلُ فِي مَفْهُومِ الطَّعَامِ أَيْضًا؛ لِأَنَّهَا تُؤَخَّذُ عَنْ طَرِيقِ الْفَمِ الَّذِي يَقُومُ بِالطَّعْمِ.

وَالطَّعَامُ أَحَدُ الْأَسَاسِيَّاتِ الثَّلَاثَةِ لِلْإِنْسَانِ، حَيْثُ يَسْتَهْلِكُ تَقْرِيْبًا ٤٠٪ مِنْ دَخْلِ الْإِنْسَانِ فِي أَى مَسْتَوَى مِنَ الْمَسْتَوِيَّاتِ الثَّلَاثَةِ؛ وَهِيَ مَسْتَوَى الْكِفَافِ، وَمَسْتَوَى الْكِفَايَةِ، وَمَسْتَوَى الْكِفَاءَةِ، وَهَذِهِ مَسْتَوِيَّاتِ الْمَعِيْشَةِ الثَّلَاثِ الَّتِي لَهَا عِلَاقَةٌ بِتَحْدِيدِ مَسْتَحَقِّ الزَّكَاةِ، فَالزَّكَاةُ تُعْطَى لِمَنْ هُوَ دُونَ مَسْتَوَى الْكِفَافِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى مَسْتَوَى الْكِفَايَةِ، وَيُمْكِنُ

(١) سنن ابن ماجه (كتاب الأطعمة/ باب إطعام الطعام) ٢/ ١٠٨٣.

(٢) صحيح البخارى (كتاب المرضى - باب وجوب عيادة المريض) ٧/ ١١٥، رقم: ٥٦٤٩.

تحويلُ هذا النظر في أرقام تختلف قطعاً باختلاف البلد، وباختلاف الأزمان، وباختلاف الأعراف السائرة بين الناس.

فمستوى الكفاف هو الذى تتوفر فيه للإنسان حاجاته الأساسية، والطعام هو البداية؛ لأنه على مستوى الضرورة، ويُحسبُ طبقاً لعلم التغذيةِ بالسعراتِ الحرارية، والطعامُ اليومي يأتى فى صورة ثلاث وجبات، ويجب أن يشتمل على المجموعات الغذائية المختلفة من نشويات وبروتينات وسكريات وفيتامينات وألاح ومعادن ونحوها من المجموعات التى يحتاجها جسم الإنسان حتى لا يصاب بالأمراض.

فالبالغ من الرجال يحتاج نحو ٣ آلاف سُعر حرارى يومياً، ومن النساء نحو ألفى سُعر، والطفل يحتاج ١٥٠٠ سعر فى تفاصيل وجداول علم التغذية، والسُعر الحرارى هو مقدارُ الطاقة اللازمة لرفع ١ جم ماء مقطر من درجة حرارة ١٣,٥ درجة مئوية إلى ١٤,٥ درجة مئوية.

ويأتى بعد الطعام فى سُلّم الضروريات المسكنُ الملائم، وهو يختلفُ من بلدٍ إلى أخرى، وتُضافُ تكلفتهُ إلى حد الكفاية، ويُضاف أيضاً إلى حد الكفاية ضرورةُ التعليم، والعلاج، والأمن الاجتماعى، والأنشطة من رياضة، وفنونٍ وآداب.

أما حدُ الكفاءة فيضاف إلى ما سبق بناءً الملكات الشخصية والتدريب عليها، كإتقان اللغات والرياضة الترفيهية، والمشاركة الاجتماعية والسياسية، والإسلام يفرض حدَّ الزكاة لمن لم يتحصل على حد الكفاف حتى نصل به إلى حد الكفاية، ثم نعطي من الصدقات أعلى من حد الكفاية حتى نصل إلى حد الكفاءة، ولكن الزكاة لا تجوز لغنى، ولا لذى

مرة سوى<sup>(١)</sup>، وأما الصدقة النافلة فتجوز للغنى.

ولقد وضعت الأمم المتحدة وهيئات الغذاء والأدوية العالمية دراساتٍ حول كل ذلك، أرجو أن أو تدخّل في تدريس مناهج الزكاة عند المسلمين: لفهم كلام التراث الإسلامي بعق، وحتى نرى كيف أن هذه الحضارة التي بنيت على ذلك الدين كانت حضارة إنسانية راقية. ونأمل أن تستمر على ذلك، وما ذلك على الله ببعيد.

والجديد الذي نقدمه في أمر الزكاة هو فكرة «إغناء الفقير» حتى يخرج من دائرة الاحتياج، فإن أعطينا الفقير مبلغا كبيرا من المال دفعة واحدة لخروج من دائرة الفقر إلى الغنى.

فالمجتمع الإسلامي يسعى للقضاء على الفقر، والأمية، والفساد، وكل السلبيات التي تشوه صورته، ولذلك فإن الأولى في إعطاء الفقراء من مال الزكاة أن يصل حد الإعطاء إلى درجة الإغناء؛ لما في ذلك من القضاء على فقر الفقير، ولما فيه من مشاركة هذا الفقير في العام المقبل إخواته الأغنياء في دفع الزكاة، فيجوز إعطاء الفقير الواحد من الزكاة ما يكفيه غالب العمر، يعنى يمكن إعطاؤه ما يكفيه لمدة ٦٠ سنة، وفي أقوال مائة سنة، كما ذكره الرملى وسيأتى، وهو مذهب الشافعى رضى الله عنه، قال النووى رحمه الله: «قال أصحابنا العراقيون وكثيرون من الخراسانيين: يعطيان ما يخرجهما من الحاجة إلى الغنى، وهو ما تحصل به الكفاية على الدوام. وهذا هو نص الشافعى رحمه الله» أه<sup>(٢)</sup>.

(١) الترمذى (كتاب الزكاة - باب ما جاء فيمن لا تحل له الصدقة) ٤٢ / ٣ - رقم (٦٥٢).

(٢) المجموع شرح المذهب للنووى، ١٧٥ / ٦.

وأكد النووى ذلك فى المنهاج وشرحه لجلال الدين المحلى حيث قال: (قلت الأصح المنصوص وقول الجمهور) يُعطى (كفاية العمر الغالب، فيشتري به عقاراً يستغله)، ويستغنى عن الزكاة (والله أعلم). ومن يُحسن الكسب بحرفة يُعطى ما يشتري به آلاتها، قلت قيمتها أو كثرَت، أو بتجارة يُعطى ما يشتري به، مما يُحسن التجارة فيه ما يفي ربحه بكفايته غالباً<sup>(١)</sup>.

وبيّن الشافعية أن المراد بغالب العمر مدة ستين عاماً، فإذا كان بعدها الفقير ما زال فقيراً يأخذ من الزكاة ما يكفيه لمدة عام واحد وهكذا. وهذا ما بينه الرملى - رحمه الله -؛ حيث (سُئل) عن قولهم يُعطى الفقير من الزكاة كفاية العمر الغالب؛ فما حد العمر الغالب المذكور، وما قدر ما يعطى إذا جاوز العمر الغالب؟ (فأجاب) بأن حد العمر الغالب ستون سنة، فإذا جاوز العمر الغالب أعطى كفاية سنة؛ فإن جاوزها أعطى كفاية سنة أخرى، وهكذا يلحق بخط ولده، ووقع للوالد جواب آخر، وهو أن حدَّ العمر الغالب ما يغلبُ على الظن أن ذلك الشخص لا يعيش فوقه، ولا يتقدرُ بمدةٍ على الصحيح، وقيل: يتقدرُ بسبعين سنة، وقيل: بثمانين، وقيل: بتسعين، وقيل: بمائة، وإذا جاوز العمر الغالب أعطى كفاية سنة. فإن جاوزها أعطى كفاية سنة وهكذا<sup>(٢)</sup>.

واختار الآجرى والشيخ تقي الدين جواز الأخذ من الزكاة جملةً واحدة ما يصيرُ به غنياً وإن كثر<sup>(٣)</sup>.

(١) شرح جلال الدين المحلى، على منهاج الطالبين، ٣ / ٢٠٠.

(٢) فتاوى الرملى، ٣ / ١٣٧.

(٣) الإنصاف للمررداوى الحنبلى ٣ / ٢٣٩.

وعلى ما سبق ذكره من مذهب الإمام الشافعي وغيره نرى أنه يجوز إعطاء الفقير من زكاة المال ما يغنيه ويخرجه من مسمى الفقر، بل يجوز إعطاؤه ما يكفيه طوال عمره الغالب كما مر، والله تعالى أعلى وأعلم.

### الزكاة نموذج لتحقيق الأمن الاقتصادي:

خلق الله الإنسان واعتنى به، فأرسل إليه الرسل، وأنزل إليه الكتب، وشرع له الشرائع التي تهدف إلى سموه بإنسانية والرقى بها لأعلى درجات الكمال، ويطرب على الامتثال بها تطهير النفس البشرية من كل دنس، وشفاء القلب من كل مرض.

والزكاة هي صورة يتجلى فيها جمال الشريعة واشتمالها على صلاح الإنسان والكون، وينم اسمها عن كل تلك المعاني العظيمة، فالزكاة في اللغة تعني: النماء، والزيادة، والطهر، والصلاح، وصفوة الشيء وما أخرجته من مالك لتطهره به، وقد استعملها القرآن الكريم بمعنى الإنفاق في سبيل الله من المال، وفي معنى الصلاح قال الله تعالى: ﴿فَارْزُقْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَّوْهُ وَأَقْرَبَ رَحْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٨١]. قال الفراء: (أى صلاحاً<sup>(١)</sup>)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ (أى: ما صلح منكم، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة النور: الآية ٢١] أى: يصلح من يشاء.

والزكاة التي يخرجها المسلم من ماله يطهر بها نفسه، وتنقسم إلى: زكاة المال وزكاة الفطر، فأما زكاة المال فهي مقدار يخرجهُ الإنسان من

(١) معاني القرآن ٣/ ١٠٨٠.

إجمالي ثروته بشروط معينة كَحَوْلَانِ الحَوْل. و**بُلُوغِ النَّصَابِ**، ويُخرج هذا المال إلى أصناف محددة من الناس كالفقراء والمساكين وغيرهم، وهي على أي مال سواء كان ذلك المال نقدياً، أو ما يشبهه من ثروة حيوانية (الأنعام) أو ثروة زراعية (كغلال الحبوب) أو ثروة متداولة كالبضائع (عروض التجارة) فكل هذه الأصناف وغيرها مما قد نفرد لها حديثاً خاصاً يوضح أحكامها تفصيلاً .

وأما زكاة الفطر فهي صدقة تجب بالإفطار من رمضان - ويمكن أن تُخْرَجَ قبل ذلك - بمقدار محدد على كل نفس، يُخرجها العائل عن نفسه وعن تلزمه نفقته. وتُخْرَجُ للفقراء والمساكين وكذلك باقى الأصناف الثمانية التي ذكرهم الله في آية مصارف الزكاة. قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَقَةَ فَلُوهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْعَدْرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦٠].

والفطر اسم مصدر من قولك: أفطر الصائم إفتاراً . وأضيفت الزكاة إلى الفطر، لأنه سبب وجوبها، وقيل لها فطرة، كأنها من الفطرة التي هي الخلقة.

وقد شرع الله زكاة الفطر لحكم عالية، وأغراض غالية، نذكر منها التكافل الاجتماعي، وتعميق روح الإخاء الإنساني بين أفراد المجتمع المسلم، فينبغي على المسلم الذي أغناه الله من فضله ألا ينسى أخاه الفقير، وأن يسعى إلى تهدئة نفسه، وراحة باله من سؤال الناس في ذلك اليوم، حتى يفرح في العيد هو ومن يعول مثلما يفرح أخوه الغنى.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أَغْنُوهُمْ عَنْ طَوَافِ هَذَا الْيَوْمِ"<sup>(١)</sup>. فحث الإسلام على الرفق بالفقراء بإغنائهم عن السؤال في يوم العيد وليُطهر الصائم نفسه في هذا اليوم مما علق بصومه من لغو أو رفث، فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَكَاةَ الْفِطْرِ طُهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنَ اللُّغْوِ وَالرَّفَثِ وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ، مَنْ أَدَاهَا قَبْلَ الصَّلَاةِ فَهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ، وَمَنْ أَدَاهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنَ الصَّدَقَاتِ<sup>(٢)</sup>.

وزكاة الفطر واجبة على كل مسلم يُقَدَّرُ على إخراجها، إلا ما نُقِلَ في قولٍ عن المالكية بأنها سنة، وقد ضَعَّفَ هذا القول العلامة الدسوقي<sup>(٣)</sup>، ولا يشترط في القدرة على الإخراج ملكٌ نصاب زكاة المال على ما ذهب إليه الجمهور، فمن ملك قوت يومه، وزَادَ عن ذلك مقدار الزكاة وَجَبَ عليه إخراجها، وهي صاعٌ من الحبوب من غالب قوت أهل البلد، ومقدار ذلك الصاع يختلف باختلاف كثافة نوع الحبوب الذي يُخْرَجُ منها الإنسان، فمثلاً صاعُ الأرز ٢,٤٠٠ كيلو جرام، أما في الدقيق فسيكون أقل وهكذا.

وقد ذهبنا إلى القول بإخراج زكاة الفطر من النقود موافقةً لمذهب الحسن البصري حيث روى عنه أنه قال: لا بأس أن تُعطَى الدراهم في صدقة الفطر. وكذلك أبو إسحاق السبيعي، فعن زهير قال: سمعت

(١) السنن الكبرى للبيهقي (باب وقت إخراج الزكاة) ٤ / ١٧٥.

(٢) سنن أبي داود (باب زكاة الفطر) ٢ / ٢٥، رقم (١٦١١).

(٣) انظر: حاشية الدسوقي على الشرح الكبير (١ / ٥٠٤).

أبا إسحاق يقول: أدركتهم وهم يعطون في صدقة الفطر الدراهم بقيمة الطعام. وكذلك عمر بن عبد العزيز، فعن وكيع عن قرّة قال: جاءنا كتابُ عمر بن عبد العزيز في صدقة الفطر: نصف صاع عن كل إنسانٍ أو قيمته: نصف درهم، وهو مذهب الثوري، والحنفية، وبه العمل والفتوى عندهم في كل زكاة، وفي الكفارات، والنذر، والخراج، وغيرها. وهو أيضاً مذهب الإمام الناصر، والمؤيد بالله، من أئمة أهل البيت الزيدية. وبه قال إسحاق بن راهويه، وأبو ثور، إلا أنهما قيّداً ذلك بالضرورة، كما هو مذهب بقية أهل البيت، أعني جواز القيمة عند الضرورة، وجعلوا منها: طلب الإمام المال بدّل المنصوص.

وهو قول جماعة من المالكية كابن حبيب. وأصبع، وابن أبي حازم، وابن دينار، وابن وهب. على ما يقتضيه إطلاق النقل عنهم في تجويز إخراج القيم في الزكاة، الشاملة لزكاة المال وزكاة الرؤوس. بخلاف ما نقلوه عن ابن القاسم وأشهب من كونهما أجازا إخراج القيمة في الزكاة إلا زكاة الفطر وكفارة الأيمان<sup>(١)</sup>.

ومن العلماء من تمسك بإخراج المقدار المنصوص عليه دون القيمة، وهو اجتهاد وافق الواقع المعيش وقت الاجتهاد، حيث كانت الأمم تتعامل في أغلب الأحيان بنظام المقايضة، بمعنى أن كل السلع تصلح وسائل للتبادل وخاصة الحبوب، فكان يباع القمح بالشعير، والذرة بالقمح وهكذا، أما في عصرنا وقد انحصرت وسائل التبادل في النقود وحدها،

(١) انظر في ذلك: مصنف عبد الرزاق ٣/٣١٠ وما بعدها، والكاساني: بدائع الصنائع

٧٢/٢، وابن المرتضى: البحر الزخار ٣/١٩٥ - ٢٠٠.

فنرى أن المذهب الأوقع والأرجح هو إخراج القيمة المادية. بل نزع أن من خالف من العلماء قديماً لو أدرك زماننا لقال بقول أبي حنيفة. ويظهر لنا هذا من فقههم وقوة نظرهم.

كما أن إخراج زكاة الفطر نقوداً أولى للتيسير على الفقير أن يشتري أى شيء يريد في يوم العيد لأنه قد لا يكون محتاجاً إلى الحبوب، بل هو محتاج إلى ملابس. أو لحم، أو غير ذلك، فأعطاؤه الحبوب يضطره إلى أن يطوف بالشوارع ليجد من يشتري منه الحبوب. وقد يبيعها بثمن بخس أقل من قيمتها الحقيقية، هذا كله في حالة اليسر. ووجود الحبوب بكثرة في الأسواق أما في حالة الشدة وقلة الحبوب في الأسواق، فدفع العين أولى من القيمة مراعاة لمصلحة الفقير.

\* \* \*

## خامساً: الأمن العسكري:

وهو مبنى في الإسلام على الردع وليس على العدوان؛ قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٠].

ويمكن النفاذ إلى توضيح الأمن العسكري في الإسلام من خلال بيان المفهوم الإسلامى للحرب.

## مفهوم الجهاد في القرآن والسنة:

ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة ترفع شأن الجهاد عالياً، ويرى المطالع لهذه الآيات: أن المجاهد في سبيل الله هو ذلك الفارس النبيل الأخلاق المدرب على أخلاق الفروسية العالية الراقية؛ حتى يستطيع أن يمتثل إلى الأوامر والنواهي الربانية التي تأمره بضبط النفس قبل المعركة وأثناء المعركة وبعد المعركة، فقبل المعركة يجب عليه أن يحرر نفسه من كل الأطماع، وألا يخرج مقاتلاً من أجل أى مصلحة شخصية، سواء كانت تلك المصلحة شخصية أو طائفية عصبية، بل كما أمره تعالى أن يقاتل من أجل المبادئ والقيم، يقاتل من أجل الحق ونصرته ابتغاء لوجه الله تعالى، وذلك شرط في صحة قبول عمله وجهاده، ومعنى هذا أنه

سوف يلتزم بأوامر الله وما اشترطه لاستمرار القتال، فيكون مستعداً في أى لحظة أن يُقلع عن الاحتراب إذا فقد غايته أو حقق المراد، فلا ينساق المسلم أبداً وراء شهواته فيمعن في القتل أو الانتقام، فهو مأمور بضبط نفسه والسيطرة عليها بالالتزام بالمبادئ العالية والأخلاق الفاضلة أثناء القتال.

وبعد القتال فعليه أن يستمر في مجاهدة نفسه الجهاد الأكبر وهو أطرها على نبذ المعاصي وزيادة الطاعات، فيخرج الفارس النبيل بعد أن كان حربياً على أعداء الله والأمة ليعود مسلماً على أبناء مجتمعه يقوم بواجبه في الإعمار والتنمية وحب الآخر وعدم إيذائه.

ومن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحدثت عن الجهاد في سبيل الله يتبين أن القتال في منظور الشرع الإسلامي له غايات، ويدفع إليه أسباب ودوافع، وذلك يتمثل في النقاط التالية:

- رد العدوان والدفاع عن النفس.
  - تأمين الدعوة إلى الله وإتاحة الفرصة للضعفاء الذين يريدون اعتناقها.
  - المطالبة بالحقوق السليبة.
  - نصره الحق والعدل.
- وللقتال شروط وضوابط لا بد للمقاتل أن يتحلّى بها قبل وأثناء وبعد القتال، وهي:
- وضوح الأهداف وتحقيق نبلها وشرفها.
  - لا قتال إلا مع الحربيين المقاتلين وأما من سأل أو كان مدنياً فهو في أمان.
  - إذا جنح العدو للسلم وانتهى عن العدوان فليتوقف القتال فوراً.
  - للأسير حق في المحافظة على حياته من أى اعتداءٍ وله أن يُعامل بالحسنى.

• البيئة تصان من أى عدوانٍ أو اعتداء، سواء الحيوان أو النبات أو الحشرات، فالمسلمُ منهى عن حرقِ النخلِ والشجرِ أو قتلِ البهائم ومنهى أيضا عن حرقِ النحلِ، أو إفسادِ الزروعِ والثمارِ، ومنهى عن تلويثِ المياه، وتنجيسِ الآبار.

• احترامُ حريةِ العقيدةِ وعدمُ التعرُّضِ لكل من اعتصمَ بصومعةٍ أو ترهبَ ببيتٍ من بيوتِ العبادة، فإنه منصوصٌ على صيانةِ حياتهِ وحريةِته.

ما يرجوه المقاتل المسلم من جهاده أن يتحقق :

• إزالة الطواغيت والظلمة التي تسوق الناس وتقهروهم فتسلبهم حريتهم وتمنع عنهم سماع دعوة الحق والإسلام، وتفقتنهم فى دينهم فتهدد أمنهم وتخرب الأرض من حولهم.

• تربية النفس على مقاومة الظلم والتضحية من أجل نصره الحق، والتحقق من قيم الشهامة والنجدة والفروسية .

• إقرار العدل والحرية لجميع الناس مهما كانت عقائدهم.

• تقديم القضايا العامة على المصلحة الشخصية.

• تحقيق قوة ردع مناسبة لتأمين الناس فى أوطانهم.

ويدل على ما ذكرناه قولُ الله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بغيرِ حَقِّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الصَّوْمِعُ وَيَبِعُ وَصَلَوَاتُ وَمَسْجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [سورة الحج : الآية ٤٠]؛ قال الإمام القرطبي عند تفسيره لهذه الآية :

ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض أى لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء، لاستولى أهل الشرك وعطلوا ما بينته أرباب الديانات من مواضع العبادات، ولكنه دفع بأن أوجب القتال ليتفرغ أهل الدين للعبادة. فالجهاد أمر متقدم فى الأمم، وبه صلحت الشرائع واجتمعت المتعبادات، فكانه قال: أذن فى القتال، فليقاتل المؤمنون. ثم قوى هذا الأمر فى القتال بقوله: "ولولا دفع الله الناس" الآية، أى لولا القتال والجهاد لتغلب على الحق فى كل أمة. فمن استبشع من النصارى والصابئين الجهاد فهو مناقض لمذهبه، إذ لولا القتال لما بقي الدين الذى يذب عنه. وأيضاً هذه المواضع التى اتخذت قبل تحريفهم وتبديلهم، وقبل نسخ تلك الملل بالإسلام إنما ذكرت لهذا المعنى، أى لولا هذا الدفع لهدم فى زمن موسى الكنايس، وفى زمن عيسى الصوامع والبيع، وفى زمن محمد عليه السلام المساجد. (لهدمت) من هدمت البناء أى نقضته فانهدم. قال ابن عطية: هذا أصوب ما قيل فى تأويل الآية<sup>(١)</sup>.

ومن المشاهد من خلال التاريخ والواقع العملى أن الإسلام انتشر فى أصقاع الأرض كلها فى أرض جرى فيها قتال وفى أخرى لم يجر، ولكنه فى كل ذلك لم يصحبه إبادة لشعب كما حدث مع سكان أمريكا الأصليين؛ فلم يجر المسلمون أبداً تطهيراً للأرض من مخالفيهم، ولم ينشئوا محاكم للتفتيش عن العقائد كما فعل الأسباب مع المسلمين فى الأندلس بعد إخراجهم منها.

بل قد جرى اندماج ومصاهرة وتزاوج مع سكان بلاد الفتح وتكونت عائلات وقبائل على مر التاريخ.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٢ / ٧٠.

فلم يُهَجْرَ أَىُّ مَنْ الْيَهُودِ أَوْ النَّصَارِيِّ أَوْ الْهِنْدُوكِ مِنْ أَرْضِهِمْ بَلْ ظَلَمُوا فِيهَا مُحْتَفِظِينَ بِأَدْيَانِهِمْ، وَلَمْ تُنْقَلْ مِنْ خَيْرَاتِ الْبِلَادِ الْمَفْتُوحَةِ إِلَى عَاصِمَةِ الْإِسْلَامِ، بَلْ عَلَى الْعَكْسِ أَغْنَى الْمَسْلُومُونَ سَكَانَ كُلِّ أَرْضٍ فَتَحَوْهَا، وَظَلَّ إِقْلِيمُ الْحِجَازِ مَهْدُ الدَّعْوَةِ وَمَصْدَرُهَا فَقِيرًا حَتَّى الْعَصْرَ الْحَدِيثَ الَّذِي اِكْتَشِفَ فِيهِ الْبِتْرُولُ، بَيْنَمَا دَابَّ الْمَسْتَعْمِرُونَ الْأُورُوبِيِّونَ فِي الْعَصُورِ الْحَدِيثَةِ عَلَى نَهَبِ وَسَلْبِ خَيْرَاتِ الْبِلَادِ وَاسْتِعْبَادِ أَهْلِهَا لِصَالِحِ عَاصِمَةِ الدَّوْلَةِ الْمَسْتَعْمِرَةِ.

وَحَدَثَ فِي حَضَارَةِ الْإِسْلَامِ مَا لَمْ يَحْدُثْ فِي التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ أَنْ صَارَ الْعَبِيدُ وَالْمَوَالِي حُكَّامًا وَقَادَةً عَلَى رَأْسِ الدَّوْلَةِ كَمَا حَدَثَ فِي دَوْلَةِ الْمَالِيكِ الَّتِي اسْتَمَرَّتْ قَرُونًا.

وَبِلَادِ الْمَسْلُومِينَ عَلَى مَرِّ الْعَصُورِ هِيَ مِنْ تَعَرَّضَتْ لِلْاِعْتِدَاءِ وَالْإِغَارَةِ، فَاعْدَتِ الْحُرُوبُ الصَّلِيبِيَّةَ وَهَجَمَتْ عَلَى الشَّرْقِ لِلْاِعْتِدَاءِ عَلَيْهِ، وَاخْتِطَفَ الْأَفَارِقَةَ مِنْ غَرْبِ الْقَارَةِ لِيَسْتَعْبِدُوا فِي أَرْضِ أَمْرِيكَا وَأُورُبَا، وَمُورِسَ ضِدَّ الْمَسْلُومِينَ فِي الْأَنْدَلُسِ أَبْشَعَ أَنْوَاعِ التَّعْذِيبِ مِنْ أَجْلِ فَتْنَتِهِمْ فِي دِينِهِمْ. وَبِذَلِكَ فَقَدْ تَحَقَّقَتْ لِلتَّارِيخِ كُلِّهِ حَقِيقَةُ مَهْمَةٍ، وَهِيَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أُرْسِلَ إِلَّا لِيَكُونَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: الْآيَةُ ١٠٧]، وَهَذَا الْبَيَانُ الْقُرْآنِيُّ بِإِطَارِهِ الْوَاسِعِ الْكَبِيرِ يَشْمَلُ الْمَكَانَ كُلَّهُ؛ فَلَا يَخْتَصُّ بِمَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ، وَكَذَلِكَ يَشْمَلُ الزَّمَانَ بِأَطْوَارِهِ الْمُخْتَلِفَةَ وَأَجْيَالَهُ الْمُتَعاقِبَةَ؛ فَلَا يَخْتَصُّ بِزَمَانٍ دُونَ زَمَانٍ، وَالْحَالَاتُ كُلُّهَا سَلَمَهَا وَحَرْبَهَا فَلَا يَخْتَصُّ بِحَالَةٍ دُونَ حَالَةٍ، وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ مُؤْمِنِينَ وَكَافِرِينَ عَرَبِينَ

وعجمهم فلا يختصُ بفئةٍ دونَ فئةٍ، ليجعلَ الإنسانَ مشدوهاً متأملاً في عظمةِ التوصيفِ القرآنيِّ لحقيقةِ نبوةِ سيدِ الأولينِ والآخريينِ (وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين) رحمةً عامَّةً شاملةً، تجلَّتْ مظاهرها في كلِّ موقفٍ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم تجاه الكونِ والناسِ من حوله.

والجهادُ (الحربُ) في الإسلامِ حربٌ مشروعةٌ عند كلِّ العقلاء من بني البشر؛ لأنها حربٌ لمواجهةِ الطغيانِ والعدوانِ، حربٌ للدفاعِ عن النفسِ والدينِ والعرضِ والمالِ، وهي حربٌ شريفةٌ من نواحي عدَّة:

١ - من ناحيةِ الهدفِ.

٢ - من ناحيةِ الأسلوبِ.

٣ - من ناحيةِ الشروطِ والضوابطِ.

٤ - من ناحيةِ الإنهاءِ والإيقافِ.

٥ - من ناحيةِ الآثارِ أو ما يترتبُ على هذه الحربِ من نتائج.

وهو أمرٌ جليٌّ لكلِّ ناظرٍ ومتفكِّهٍ في نصوصِ الشريعةِ أو تطبيقِ سلفنا الصالحِ لتلكِ النصوصِ، ولكن المتعصبيين ضد الإسلامِ وأهله يُلبسُون الحقَّ بالباطلِ وهم يعلمون، حتى أشاعوا في الدنيا أراجيفَ وأكاذيبَ حول انتشارِ الإسلامِ بالسيفِ، وأنه دينُ العنفِ والإرهابِ، ولقد فطن لبطلانِ هذا الادعاءِ كتابُ غربيون، منهم الكاتبُ الكبير «توماس كارليل»، حيث قال في كتابه «الأبطال وعبادة البطولة»، ما ترجمته: «إن اتِّهَمَ محمدٌ بالتعويلِ على السيفِ في حملِ الناسِ على الاستجابةِ لدعوتهِ سخفٌ غيرُ مفهومٍ؛ إذ ليس مما يجوزُ في الفهمِ أن يُشهرَ رجلٌ فردٌ سيفه ليقتل به الناسَ، أو يستجيبوا له، فإذا آمن به من يقدرُون على

حرب خصومهم، فقد آمنوا به طائعين مصدقين، وتعرضوا للحرب من غيرهم قبل أن يقدرُوا عليها<sup>(١)</sup>.

والمؤرخُ الفرنسي «غوستاف لوبون» في كتابه حضارة العرب - وهو يتحدث عن سر انتشار الإسلام في عهده صلى الله عليه وسلم وفي عصور الفتوحات من بعده: قد أثبت التاريخ أن الأديان لا تُفرض بالقوة، ولم ينتشر الإسلام و القرآنُ إذن بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخرًا كالترك والمغول، وبلغ القرآنُ من الانتشار في الهند التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل ما زاد عدد المسلمين على خمسين مليون نفس فيها، ولم يكن القرآنُ أقلَّ انتشارًا في الصين التي لم يفتح العربُ أي جزء منها قط، وسترى في فصل آخر سرعة الدعوة فيها ويزيد عدد مسلميها على عشرين مليونًا في الوقت الحاضر<sup>(٢)</sup>.

هذا وقد مكث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاثة عشر عامًا، يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد كان نتاج هذه المرحلة أن دخل في دين الإسلام خيارُ المسلمين من الأشراف وغيرهم، وكان الداخلون أغلبهم من الفقراء، ولم يكن لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثروة عظيمة يُغرى بها هؤلاء الداخلين، ولم يكن إلا الدعوة والدعوة وحدها، ولم يقف الأمرُ عند هذا الحد بل تحمّل المسلمون - لاسيما

(١) نقلًا عن كتاب حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعقاد ص ١٦٦ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) غوستاف لوبون حضارة العرب ص ١٢٨ ، ١٢٩ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الفقراءُ والعبيدُ ومن لا عُصبةَ لهم - من صنوفِ العذابِ وألوانِ البلاءِ ما تعجزُ الجبالُ الرواسي عن تحمله، فما صرّفهم ذلك عن دينهم، وما تزعزعت عقيدتهم، بل زأدهم ذلك صلابةً في الحقِّ، وصدوا صمودَ الأبطالِ مع قلتهم وفقرهم، وما سمعنا أن أحدا منهم ارتدَّ سُخْطاً عن دينه، أو أغرته مغرياتُ المشركين في النكوص عنه، وإنما كانوا كالذهبِ الإبريز لا تزيده النارُ إلا صفاءً ونقاءً، وكالحديد لا يزيده الصهرُ إلا قوةً وصلابةً، بل بلغ من بعضهم أنهم وجدوا في العذابِ عذوبةً، وفي المرارة حلاوةً.

أفيصح مع هذه الحقائقِ الناصعةِ أن يقال: إن محمداً صلى الله عليه وسلم قد قهرَ الناسَ وحملهم على الدخولِ في دينه بالقوةِ والإرهابِ والسيفِ؟! .

\* \* \*

## سادسًا: الأمن البيئي:

وهو مبنى في الإسلام على محورين: أولهما علاقة الكون بخالقه، وثانيهما: علاقة الإنسان بالكون، وهو قائم على التكامل والتوافق بين مفهوم التسخير ومفهوم الخلافة.

## أولًا: علاقة الكون بخالقه:

١ - الكون كله يُسَبَّحُ لله عز وجل، قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرْتُ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّهُ وَلَوْ أَعْلَى ﴿﴾ [سورة النور: الآية ٤١]، وقال تعالى: ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤].

وطالما أن الكون يسبح ربه ويحمد خالقه الحق، فإن أي اعتداء من الإنسان على مفردات هذا الكون، أو طغيان على مخزوناتِه، يُعدُّ عبثًا وفسادًا، وينبغي أن يُعاقَبَ فاعله وتُغَلَّ يده؛ لأن أي اعتداء على الكون يعد اعتداء على حق الإنسانية في الحياة واشتراكها في حق الانتفاع بما أودعه الله فيه من خيرات، والمسلم بهذا التصور يحترم جميع المخلوقات أصغرهما وأعظمها؛ لأنه يراعى فيها عظمة موجدتها ومدبرها، وقدرة من تعبدها بالتسبيح والسجود.

٢ - والكون قد يشارك الإنسان في الطاعة والتسبيح، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٧٩]، وقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوْيٍ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدُ﴾ [سورة سبأ: الآية ١٠]؛ فنبى الله داود عليه السلام الذى جعله الله خليفة فى الأرض وآتاه الحكم والعلم ورزقه الحكمة وأمره أن يحكم بالحق فَحَكَمَ، كان جزاؤه أن سخر الله تعالى له الجماد والحيوان تسخييرا خاصا، فكان إذا سبَّح داود أجابته الجبال والطيور تسبيحا بتسبيح، وكان عليه السلام إذا وجد فترة من الذكر أوحى الله إلى الكون من حوله فذكره وسبَّح حتى ينشط داود إلى الذكر والتسبيح.

٣ - المخلوقات لها إدراك تفهّم به الخطاب؛ حيث أوحى الله سبحانه إلى النحل، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذْ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [سورة النحل: الآية ٦٨-٦٩].

وأمر الأرض أن تبلع ماءها والسماء أن تتوقف عن الهطول حتى يتمكن نبيه نوح عليه السلام ومن آمن معه من إعادة إعمار الأرض مرة أخرى، بقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَنَسَمَاءُ أَقْلِي﴾ [سورة هود: الآية ٤٤].

وجعل للأرض والسماء اختياراً، إلا أنهما استتقلنا تحمل مسئولية الاختيار، وآثرتا أن تكونا مجبولتين على طاعة الخالق، فقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [سورة فصلت: الآية ١١].

وعرض الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها

فرقًا وخوفًا من المساءلة، قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ  
ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٢].

ومثل هذه الآيات والتصورات ترسخُ في عقيدة المسلم احترام  
الكائنات من حوله في الكون ليس فقط من ناحية مادية بل أيضًا من  
ناحية المشاركة الوجدانية والتفاعل الروحي، وهذه العقيدة لا تدفعه فقط  
للمحافظة على هذه الكائنات للانتفاع منها بشكلٍ مادي، بل هو يشعرُ  
بالاحترام والتقدير لها؛ لأنها شريك له في العبودية لرب العالمين.

### ثانيًا: علاقة الإنسان بالكون:

تقوم العلاقة بين الإنسان والكون على التوافق والانسجام، ومُنذ  
أن هَبِطَ الإنسانُ إلى الأرضِ وقد ارتبطَ تطوره العقلي والحضارى بحسنِ  
توافقه وتكيفه مع البيئة والكون، وحسنِ استخدامه وانتفاعه بمفردات  
الحياة. فلا يحق له بأى حال الإساءةُ إليه، بل يجبُ عليه احترامه  
ورعايته .

والمسلمُ خاصة يتعاملُ مع مخلوقاتِ الله عز وجلَّ من منطلقِ الشعورِ  
بالمساواةِ معها والمشاركةِ فى العبوديةِ لإلهٍ واحدٍ، وترتبطُ علاقاته بغيره  
بمدى تعلُّقه والتفاتِه إلى ربه، فهو يتوجهُ بالحبِّ إلى الله ومن خلال  
ذلك الحبِّ يتوجهُ بالحبِّ إلى ما أبدعَ وصنعَ، ولذلك نراه يستوى عنده  
ضعفُ المخلوقاتِ وقوتُها، حقارتُها وعظمتُها؛ لأنَّ نظرَه لا يتعلَّقُ بها  
بل يتعلَّقُ بخالقها القوي الحكيم.

فالمسلم يُقدِّس من عالم الأشياء: المصحف والكعبة وقبر النبي محمد صلى الله عليه وسلم ونحوها؛ لمكانتها الجليلة عند الله عز وجل، وتقديسه لها يجمع بين الاحترام والحب.

١ - ولقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه درساً في حُبِّ الجماد والتفاعل معه ومجاوبته حينما حنَّ إليه الجذع ومال؛ فعن جابر: كَانَ الْمَسْجِدُ مَسْقُوفًا عَلَى جُذُوعٍ مِنْ نَخْلٍ ، فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَطَبَ يَقُومُ إِلَى جِذْعٍ مِنْهَا ، فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ الْمُنْبَرُ ، وَكَانَ عَلَيْهِ ، فَسَمِعْنَا لِذَلِكَ الْجِذْعِ صَوْتًا كَصَوْتِ الْعِشَارِ ، حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ ، فَسَكَتَتْ<sup>(١)</sup> . ومن الناس بل ومن المؤمنين من قلبه ونفسه أكثر قسوة من الجذع فلا تحنُّ لرسول الله ولا تننُّ لفراقه كما فعل.

٢ - وعندما مرَّ النبي صلى الله عليه وسلم على جبل أُحُدٍ ذات مرة، وعلى الرغم من أنه كان -أحد- موطناً أصاب المسلمين فيه قرحٌ وأصاب النبي فيه جرحٌ، واستشهد عليه عمُّ النبي صلى الله عليه وسلم حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه فحزن النبي لذلك أشد الحزن، إلا أنه أشار إليه وقال: «هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»<sup>(٢)</sup>.

فالجبل أحبُّ المسلمين ، والمسلمون يحبون هذا الجبل ، على الرغم من أن ما حدث في موقعة أُحُدٍ كان أدعى أن يتشاءم المسلمون منه. وفي موقف آخر مع جبل أُحُدٍ نجد النبي صلى الله عليه وسلم يغمزه

(١) صحيح البخارى (كتاب المناقب - باب علامات النبوة) ٤ / ١٩٥ ، رقم (٣٥٨٥).

(٢) صحيح البخارى (كتاب المغازى باب أُحُدٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ) ٥ / ١٠٣ ، رقم (٤٠٨٣).

يرجله حينما اهترز من تحته ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :  
صعد النبي صلى الله عليه وسلم إلى أحدٍ ومعه أبو بكر وعمر وعثمان ،  
فزجف بهم ، فضربه برجله قال : «اثبت أحد ، فما عليك إلا نبئ  
وصديق وشهيدان»<sup>(١)</sup>.

٣ - ولم يكن هذا الأمر من التفاعل مع الجماد في البيئة الإنسانية  
مقصوداً في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بعثته ، بل  
وقبلها فقد قال صلى الله عليه وسلم : «إنني لأعرف حجراً بمكة  
كان يُسلم عليّ قبل أن أبعث إنني لأعرفه الآن»<sup>(٢)</sup> . فالنبي يذكر أنه  
لم يتجاهل الحجر بعد البعثة ، بل ظل يعرفه ويتعلق به ، فالحجر  
مخلوق لله عز وجل أحب نبيه وعظمه ، وكان يسلم عليه بصوت  
قبل البعثة حتى يُعلمه بأن أمراً عظيماً ينتظره وأن الخالق يدخره  
لتحمل رسالة الدعوة والتبليغ .

٤ - ومثل ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أَرَادَهُ اللهُ  
بكرامته وأبتدأه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسّر  
عنه البيوت ويُغضى إلى شعاب مكة وبُطون أوديتها ، فلا يمر رسول  
الله صلى الله عليه وسلم بحجرٍ ولا شجرٍ إلا قال : السلام عليك  
يا رسول الله<sup>(٣)</sup> .

(١) صحيح البخارى (كتاب فضائل الصحابة - باب مناقب عمر بن الخطاب أبى حفص

القرشى العدوى رضى الله عنه) ٥ / ١١ ، رقم (٣٦٨٦).

(٢) صحيح مسلم (كتاب الفضائل - باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم وتسلم

الحجر عليه قبل النبوة) ٧ / ٥٨ ، رقم (٦٠٧٨).

(٣) انظر فى ذلك : ابن هشام : السيرة النبوية ص ٢٣٤ ، وابن سعد : الطبقات الكبرى ١ / ١٥٧ .

٥ - وفي ليلة الجن التي خرج فيها النبي صلى الله عليه وسلم مع عبد الله بن مسعود، فاجتمع نفر من الجن يستمعون القرآن ثم انصرفوا إلى قومهم منذرين، سئل ابن مسعود من أخبر رسول الله بحضورهم، فقال: آذنته بهم شجرة<sup>(١)</sup>. أى أعلمته بهم شجرة.

٦ - ولقد نَبَعَ الماء بين أصابعه الشريفة صلى الله عليه وسلم وسبَّحَ الطعامُ بين يديه فسمِعَهُ أصحابه، فَعَنَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: كُنَّا نَعُدُّ الْآيَاتِ بَرَكَةً وَأَنْتُمْ تَعْدُونَهَا تَخْوِيفًا، كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ، فَقَلَّ الْمَاءُ فَقَالَ: «اطْلُبُوا فَضْلَةً مِنْ مَاءٍ». فَجَاءُوا بِإِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ قَلِيلٌ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي الْإِنَاءِ، ثُمَّ قَالَ: «حَيَّ عَلَى الطُّهُورِ الْمُبَارِكِ، وَالْبِرَكَةِ مِنَ اللَّهِ» فَلَقَدْ رَأَيْتُ الْمَاءَ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ<sup>(٢)</sup>.

٧ - والذراع المطهية تحدثت لرسول الله تحذره من السُّم الذي دسَّته اليهودية فيها، فإنَّ يَهُودِيَّةً مِنْ أَهْلِ خَيْبَرَ سَمَّتْ شَاةً مَصْلِيَّةً ثُمَّ أَهْدَتْهَا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذَّرَاعَ فَأَكَلَ مِنْهَا وَأَكَلَ رَهْطٌ مِنْ أَصْحَابِهِ مَعَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ارْقِعُوا أَيْدِيَكُمْ».

(١) صحيح مسلم (كتاب الصلاة - باب الجَنِّ بِالْقِرَاءَةِ فِي الصُّبْحِ وَالْقِرَاءَةِ عَلَى الْجِنِّ

٣٧ / ٢، رقم (١٠٣٩).

(٢) صحيح البخاري (كتاب المناقب - باب غَلَامَاتِ النَّبِيِّ فِي الْإِسْلَامِ) ١٩٤ / ٤،

رقم (٣٥٧٩).

وَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ فَدَعَاَهَا فَقَالَ لَهَا: «أَسَمَّيْتَ هَذِهِ الشَّاةَ؟». قَالَتِ الْيَهُودِيَّةُ: مَنْ أَخْبَرَكَ؟ قَالَ: «أَخْبَرْتَنِي هَذِهِ فِي يَدِي». لِلذَّرَاعِ. قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: «فَمَا أَرَدْتَ إِلَى ذَلِكَ؟». قَالَتْ: قُلْتُ: إِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلَنْ يَضُرَّهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ اسْتَرَحْنَا مِنْهُ. فَعَقَا عَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ<sup>(١)</sup>.

٨ - وقد كان الترابُ سَلاخًا ناجعًا<sup>(٢)</sup> استجاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر وغزوة حنين فغشى أعين المشركين؛ فعن ابن عباس: إِنْ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْرِ فَتَعَاقَدُوا بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى وَنَائِلَةَ وَإِسَافَ لَوْ قَدَرْنَا مُحَمَّدًا لَقَدْ قُتْنَا إِلَيْهِ قِيَامَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَلَمْ نُفَارِقْهُ حَتَّى نَقْتَلُهُ، فَأَقْبَلَتْ ابْنَتُهُ فَاطِمَةُ تَبْكِي، حَتَّى دَخَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: هَؤُلَاءِ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ تَعَاقَدُوا عَلَيْكَ لَوْ قَدَرْنَا لَقَدْ قَامُوا إِلَيْكَ فَقَتَلُوكَ، فَلَيْسَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا قَدْ عَرَفَ نَصِيبَهُ مِنْ دَمِكَ. فَقَالَ: «يَا بَنِيَّةُ أَرِينِي وَضُوءًا». فَتَوَضَّأَ ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِمُ الْمَسْجِدَ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: هَا هُوَ ذَا. وَخَفَضُوا أَبْصَارَهُمْ وَسَقَطَتْ أَذْقَانُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ، وَعَقِرُوا فِي مَجَالِسِهِمْ، فَلَمْ يَرْفَعُوا إِلَيْهِ بَصْرًا، وَلَمْ يَقُمْ إِلَيْهِ مِنْهُمْ رَجُلٌ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى قَامَ عَلَى

(١) سنن أبي داود (كتاب الديات - باب فيمن سقى رجلاً سماً أو أطعمه فمات أيقاد منه)

٤/٢٩٤ - رقم (٤٥١٢).

(٢) ناجعاً : نافعاً وظاهر أثره

رُؤُسِهِمْ، فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ. فَقَالَ: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ». ثُمَّ حَصَبَهُمْ بِهَا فَمَا أَصَابَ رَجُلًا مِنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْحَصَى حَصَاةً إِلَّا قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ كَافِرًا<sup>(١)</sup>.

وعن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه أنه قال: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَصِيَّاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهُ الْكُفَّارِ، ثُمَّ قَالَ: «أَنْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ». فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصِيَّاتِهِ فَمَا زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلًا وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا .

وقال سلمة بن الأكوع وقد شهد مع رسول الله حُنينًا: فَلَمَّا غَشُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَزَلَ عَنِ الْبَغْلَةِ ثُمَّ قَبَضَ قَبْضَةً مِنَ تُرَابِ مِنَ الْأَرْضِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ بِهِ وُجُوهُهُمْ فَقَالَ: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ». فَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْهُمْ إِنْسَانًا إِلَّا مَلَأَ عَيْنَيْهِ تُرَابًا بِتِلْكَ الْقَبْضَةِ فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ<sup>(٢)</sup>.

٩ - ولم يكن تفاعل عالم الجماد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصورا على العالم الأرضي، بل امتد إلى العالم السماوي؛ فنجد القمر ينشق نصفين معجزة له، فَإِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً فَأَرَاهُمْ انشِقَاقَ الْقَمَرِ. قال الخطابي: انشقاق القمر آية عظيمة لا يعادلها شيء من آيات الأنبياء؛ لأنه ظهر في ملكوت السماء، والخطب فيه أعظم، والبرهان به أظهر؛ لأنه خارج عن جملة طباع ما فى هذا العالم من العناصر<sup>(٣)</sup>.

(١) مسند أحمد (مسند عبد الله بن عباس) ٤٤٢/٥.

(٢) صحيح مسلم (كتاب الجهاد والسير - باب فى غزوة حنين) ١٦٩/٥، رقم (٤٧١٩).

(٣) نقلًا عن: عمدة القارى شرح صحيح البخارى ٢٢٤/١٦، تحقيق عبد الله محمود،

دار الكتب العلمية، ط١/٢٠١١م.

١٠ - واستجاب الله لنبيه فسخر السماء والسحاب لاستسقاؤه صلى الله عليه وسلم من حينها، فعن أنس بن مالك قال: أصابت الناس سنة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فبينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب في يوم الجمعة قام أعرابي، فقال: يا رسول الله هللك المال وجاع العيال، فادع الله لنا. فرفع يديه، وما نرى في السماء قزعة، فولدني نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته صلى الله عليه وسلم، فمطرنا يومنا ذلك، ومن الغد، وبعد الغد والذي يليه، حتى الجمعة الأخرى، وقام ذلك الأعرابي - أو قال غيره - فقال: يا رسول الله، تهدم البناء وغرق المال، فادع الله لنا. فرفع يديه، فقال: «اللهم حوالينا، ولا علينا». فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت، وصارت المدينة مثل الجوبة، وسأل الوادي قناة شهرا، ولم يجئ أحد من ناحية إلا حدث بالجوود. وفي رواية: وخرجنا نمشي في الشمس<sup>(١)</sup>.

فالجماؤ له احترامه في تصور المسلم للوجود، وقد تعلق كثير من العبادات بالمكان والزمان، وأوضح مثال على ذلك حركة المسلم في طوافه حول الكعبة، فإنها حركة تشبه كثيرا حركة النجوم والأجرام السماوية في أفلاكها حول مركزها، وتشبه أيضا حركة الإلكترونات في مساراتها

(١) صحيح البخاري (كتاب الجمعة - باب الاستسقاء في الخطبة يوم الجمعة) ٢٨/٢ ،

حول النواة داخل الذرة، مما يعكس صورة رمزية لوحدة البناء بين أعظم المخلوقات وأدقها، فينطق بأنه سبحانه الإله الواحد خالق كل شيء، وأن الكون عبارة عن مسجد كبير اشتركت فيه الكائنات سُجوداً وتسييحاً لخالقها .

والإنسان وجميع الموجودات خاضعون لقانون واحد وسنة واحدة تتحكم في تحركهم وسكونهم، وهذا النظام يعبر عن وحدة الخالق، وتظهر فيه سنن الله في خلقه. فلكل موجود ممكن دورة حياة، تبدأ بالوجود ثم النماء ثم الضمور فالموت. وهو أمر يصيب كل شيء من حولنا، سواء في ذلك الجماد والحيوان والإنسان، حتى النجوم والمجرات لها أعمار وأجال، بانتهائها تدخل في دورة حياة كائنات أخرى، وتفقد صورتها الأولى وتتحول إلى صور أخرى متعددة؛ قال تعالى: ﴿الَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفاً أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرَهُ مَضْفَراً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة الزمر: الآية ٢١]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشِبْهَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [سورة الروم: الآية ٥٤].

فالموجودات تتشابه في أطوار التكوين وتتابعها عليها بين الضعف والقوة والنقص والكمال، ولكل موجود أجل وعمر مقدر لا يتقدم عليه لحظة ولا يتأخر، ينتهي دوره في الكون بانتهاء أجله .

وكذلك فهناك تشابه في التكاثر بين المخلوقات، حيث خلق الله سبحانه وتعالى من كل شيء زوجين متجاذبين تتولد الطاقة أو الحياة

من التقائهما، فالحياة كلها تُعتبر آيةً ساطعةً على التوحيدِ تظهرُ على وجه الكائنات صغيرها وكبيرها، قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رَوْحَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٤٩].

### مفهوم التسخير :

إن الإسلام حرر الإنسان من عبوديته لعالم الأشياء، وجعله يتحرر من رهبته أو مراقبته بتوجس، وأصبح الإنسان يتعامل مع الأشياء من حوله من منظور السلطة والسيادة، فلا يُفوّتُ أي فرصة للانتفاع بما سخره الله له.

والإنسان لا يستطيع بالتأمل في الكون الوصول إلى معرفة نظامه وقوانينه إلا إذا وثق بنفسه، وآمن بأن الكون المشاهد خاضع لإدراكه وبحثه، وبأن ظواهره ليست بالشيء المبهم الغامض الذي لا يُفسرُ، وآمن بأنه قادرٌ على الاستفادة من الكون واستغلال خيراته على أوسع نطاق لتأمين حياته ورفاهيتها.

وتأكيد القرآن على فكرة التسخير التي أخضعت الكون لخدمة الإنسان ونفعه هو ترسيخُ المنهج العلمي التجريبي في عقل الإنسان المسلم، وذلك المنهج هو الذي يدعوه إلى التحرر من سلطان عالم الأشياء والسيطرة والتمكين على مقدرات الكون، فيسعى دائماً إلى اكتشاف أسرارهِ وبحث ظواهرهِ بثقة وقوة.

فالإنسان جزءٌ من الكون، يتميزُ عليه بعلاقته الخاصة مع الخالق، فهو المكلفُ بحمل الأمانة التي شق على السموات والأرض والجبال تحمّلها؛ فارتضت أن تكون مسخرةً للإنسان يُسألُ هو عنها، وقد تميز

الإنسانُ أيضاً على بقية المخلوقات بأنه خُلِقَ مُعَدًّا لاستيعابها معرفياً، فباستطاعته أن ينقل العالم الخارجي في صورته الكمية والكيفية إلى عالمه الداخلي، فاستحق بقدرته المعرفية أن يتحمل أمانة الخلافة. والملكات والقدرات التي مُنِحَهَا الإنسان وفُضِّلَ بها على بقية المخلوقات، إنما أُوتِيها ليتمكن من الاستفادة بما سخر الله له في الكون من منافع، ولم يؤتِها للتسلط على المخلوقات والتعالى عليها، فليس للإنسان سيادة مطلقة في الوجود بل هي سيادة مشروطة بإرادة المالك الأصلي وهو الله، وليست ملكات الإنسان وقدراته هي التي سَخَّرَتْ له الكونَ ومَكَّنَتْهُ منه، ودليل ذلك:

١- أنا نرى أضعف الخلق كالذباب يمكنه أن يخترق كل الحُجُب ويصل إلى الإنسان فيسلبه شيئاً لا يستطيع استنقاذه منه، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّكَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٣].

٢- وكذلك نرى أضعف الناس جسماً كالطفل الصغير وأضعفهم عقلاً كالمجنون يستطيع التحكم فيما سُخِّرَ للإنسان نفعه كالماء والحيوانات الضخمة وغيرها، تنفعل له وتستجيب لقيادته لا لقدرة بدنية أو عقلية فيه.

٣- وقد تنفعل الطبيعة مع الإنسان دون قصدٍ منه، كأن يمر في طريق فتطأ قدمه بذرة فتصير شجرةً يأكلها حيوانٌ فيصيده الإنسان

فيأكله ، فيجعلهُ اللهُ سببًا في حياةٍ دون أن يدري ذلك .  
ونخلص من ذلك بأن الكون سُخَّرَ للإنسان بإرادة الله وقدرته ،  
وليس لِتَمَيُّزِهِ وقوته دَخُلُ في ذلك التسخير .

٤ - والطبيعة قد تنفعل بذاتها بإذن الله فتحافظ على قدرتها ونضارتها  
وجمالها ، فحتى فترةٍ وجيزةٍ من التاريخ كان الإنسان يُعْتَرُ في  
الأرض على أماكن لم تطأها قدمُ إنسانٍ من قبل ، وقد حظيت  
الطبيعة فيها بخيراتٍ وحياةٍ وجمالٍ ينبهرُ به الإنسان .  
مما يكشفُ للإنسان عن مسببٍ أولٍ وخالقٍ أعلى لهذه الأرض ،  
أودعَ فيها القدرةَ على المحافظةِ على خيراتها ملايين السنين دون  
أن يعلم عنها إنسانٌ شيئاً .

٥ - ويُثبتُ التاريخُ والمشاهداتُ والتجاربُ عن حالاتٍ كثيرةٍ تخرجُ  
فيها مظاهرُ الكونِ عن سيطرةِ الإنسانِ وقبضته ، فتنخرقُ السنةُ  
الكونيةُ ، التي يظن الإنسانُ أنه أحاط بكل أسرارها واستنفد جميع  
أسبابِ إقامتها ، فالمؤمنُ يعلمُ أن من وراء ذلك إلهًا واحدًا هو  
صاحبُ السلطانِ الحقيقي والقوةِ القاهرة .

ويحكي لنا القرآنُ عن بعض الملوك المتجبرين والفراعنة في الأرض  
الذين ظنوا أن سلطانهم فوق كل قوة ، قال تعالى : ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي  
قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا  
تُبْصِرُونَ ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٥١] . وكأنَّ تسلطهُ على الأرضِ  
والماءِ في بقعةٍ من الأرض يعطيه الحقُّ في استعبادِ الناس ، وقد سعى  
لاستعبادهم بكل سبيلٍ ، ولم يتصور أن يخرجَ موسى وقومه على إرادته

وبطشه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِّخِ آبَاءَهُمْ وَسَتَحِيءُ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَرِيدُ أَنْ تَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ [سورة القصص: الآية ٤-٦].

فكل القوانين الكونية أو التوقعات البشرية لتؤكد أن فرعون مصر منتصر، فبعد أن تجبر في الأرض وتكبر وعلا أهلها وقهرهم حتى أقروا له بالعبودية لا يمكن لموسى ومن تبعه أن ينجوا من بطشه، فضلاً أن يتحقق لهم وعد الله بالتمكين، ولكن إرادة الله شاءت أن يُنجز وعده ويجعلهم الوارثين لهذا الملك والسلطان، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَهُمْ أَيْمَةً﴾ ولاة وملوكاً (وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) نورثهم ملك آل فرعون في الأرض. ﴿وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، ولولا أن تدخلت إرادة الله وقوته فقلبت الموازين وغيّرت السنن في اتجاه نصره الحق ونجاة أصحاب المنهج ما كانت تلك النتيجة.

ولا يمكن لإنسان العصر أن يستقر نفسياً ويأخذ وجهته الصحيحة نحو إنجاز رسالته على الأرض إلا إذا عرف حدوده مع خالق هذا الكون ومدبره، ذلك أن الكون كله شأن من شؤون الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٩] فهو تعالى خالق الكون بما فيه الإنسان، وهو الذي ركب العقل في الإنسان ليُعمر به الأرض لا ليدمرها، وليعرف به خالقه لا ليحده.

وحاول أن تضع الإنسان في إطار الكون كله وقوانينه الحتمية لا في إطار قدرته الخاصة المحدودة ، لترى أن ليس للإنسان قدرة على توجيه مجرى الحوادث الكونية وفق مشيئته ؛ لأن هذا من شأن خالق الأشياء جميعا ومدبرها ، وهو الله<sup>(١)</sup>.

### مفهوم الخلافة:

استخلاف الإنسان في الأرض هو أمر من الله تعالى بالمحافظة عليها ورعايتها، وتوكيل منه سبحانه للإنسان بإعمارها وإصلاح ما يطرأ عليها من فساد، وقد وردَ تقريرُ ذلك في آيات كثيرةٍ من نصوص القرآن الكريم، ومنها:

- ١ - قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠].
- ٢ - وقوله تعالى: ﴿يٰٓدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [سورة ص: الآية ٢٦].

يلاحظ في الآية الأولى حرص الملائكة على الأرض - من حيث إنها مخلوقة لله - وخشيتهم على ما يصيبها من الفساد بفعل الإنسان، (قَالُوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا). وفساد الأرض يتعلق بالمكان والزمان. (وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ). وسفك الدماء يتعلق بالإنسان، إذن فقد كانت خشيتهم تتعلق بالإنسان أيضا؛ لأنه مخلوق لله، يستحق الرحمة والرعاية .

(١) أبو الوفا التتازاني: الإنسان والكون في القرآن ، مجلة عالم الفكر المجلد الأول العدد

وتظهر الوحدة البنائية في النص من خلال عرضها لثنائية الأرض والإنسان في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠٥].  
(لِيُفْسِدَ فِيهَا) فساد الأرض (وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ) هلاك الإنسان بهلاك الغذاء وهلاك النسل.

فقد علمت الملائكة من خلق آدم أنه سيكون مختاراً، يختلف بذلك عن غيره من الكائنات والمخلوقات، والمختار يجوز في حقه ورود المخالفة للمنهج، على عكس الكائنات التي تُؤمَرُ فتطيع، تُعَلَّمُ فتعلم، فلا يمكنها مخالفة المنهج، ولا تتعلق إرادتها بذلك. ونظرت الملائكة إلى ما رُكِبَ في الإنسان من انفعالات ورغبات وشهوات، وظنت أنه حتماً سَيَدْفَعُهُ اتِّبَاعُهَا إِلَى النُّزُوعِ إِلَى التَّفَاقُلِ وَالهِرْجِ مِنْ أَجْلِ السَّيْطَرَةِ وَالتَّسَلُّطِ.

ولكن الملائكة حينما بيَّنَ لهم الله تعالى ما خفى عنهم في خلق آدم من قدرة على تحصيل العلم والمعرفة وإعادة تراكيبها واستدعائها (قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا).

ويستفاد من ذلك أن فساد الإنسان والبيئة متعلق بفعل الإنسان وسلوكه، فإن غلبت عليه الشهوات والهوى وحاد عن العقل والعلم كان هلاكاً لنفسه ولغيره، وإن غلب عقله وتدبره وسعى لتحصيل العلم والحكمة فإنه سيوافق السنة والمنهج (الحق) الذي قام عليه الخلق، ويصير فعله إعماراً وبناءً وإبداعاً.

ويلاحظ في الآية الثانية ما جاء فيها من ذكر الخلافة والأرض والحق، فالحق هو الله سبحانه وتعالى، والحق هو الذي قام عليه الخلق،

فإن الله سبحانه وتعالى لم يخلق شيئاً عبثاً أو لعباً؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَآتَخَذَنَّهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصُفُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٦-١٨]،  
 وقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴾ [سورة المؤمنون: آية ١١٥-١١٦].

فإن الله سبحانه وتعالى عندما جعل داود خليفة في الأرض طلب منه الحكم بالحق، والحق مرادف العدل والصلاح وضد العبث واللعب والفساد، وأصل الملك الذى أوتيهِ داودُ الخليفةُ هو القيام بالحق. ولذلك أعقبه بقوله (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى) ، والهوى هو الجانب الذى ظهر للملائكة أولاً فى خلق آدم، فكان حكمهم على الإنسان بأنه سيفسد فى الأرض ويسفك الدماء. والحق هو العقل والعلم، وهو الجانب الذى خفى عن الملائكة أول الأمر.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى النبىَ محمداً صلى الله عليه وسلم أن يحكم بالحق والقسط؛ لأن ذلك طريق المحبة والقربى من الله، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٢].

٣ - وسيادة الإنسان على الكون سيادة انتداب، وليست سيادة تملك وتسلط مطلق، فالإنسان قائم بما يقوم به المؤكل من الحفظ والرعاية، وذلك مفهوم الخلافة الذى جاء به الإسلام.

ولذلك فالإنسان مسئولٌ عن الأمانة التي حمَّلَهَا، مسئولٌ عن إحسانه وإتقانه أو إساءته وإفساده، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [سورة الملك: الآية ٢]، وقال تعالى في نفس السورة: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [سورة الملك: الآية ١٥]. فقد سَخَّرَ اللهُ الأرضَ وجعلها مُذَلَّلَةً للإنسان كي يستفيدَ من خيراتها، فَوَجَبَ عليه العملُ والسعيُّ، لتحصيلِ نفعها والإصلاحِ فيها.

\* \* \*